بسم الله الرحمن الرحيم

شکر و عرفان

شكر وعرفان

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد بعد الرضى ولك الحمد إذا رضيت

حمدا يليق بجلال وجهك الكريم و عظيم سلطانك

والصلاة والسلام على خير الأنام ومخرج البشرية من الظلمات إلى الأنوار

سيدنا محمد ونبينا محمد ابن عبد الله أفضل الصلاة وأزكى التسليم

أما بعد

نتقدم بالشكر إلى الذين ساهموا في تمام هذا العمل العلمي المتواضع

وخروجه إلى النور ومهما بلغ بنا الشكر فلن نفيهم حقهم

فكلمة الشكر وحدها غير كافية

كما نتقدم بالشكر إلى من تحمل معنا وكان أكبر سندا لنا وأحسن موجه

نسأله أن يتقبل منا عبرات الشكر والامتنان الأستاذ المشرف

"الدكتور فضة الميلود"

إلى كل الأساتذة والطلبة في قسم الأدب

الإهداء

إهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى من أكتب لها بدم القلب لا بحبر القلم إلى التي حملتني و سهرت على رعايتي أعطتني الكثير ولم تبخل ولو بالقليل حملت عبئي في الحياة وأفاضت عليا بحبها و حنانها

أمي الغالية

إلى الذي كان سندا لي في الحياة ورمزا يقتدى به

إلى من لبس ثوب التعب والشقاء وألبسني ثوب الراحة و الهناء

حفظه الله أبي الغالي

إلي الأخ الوحيد وأخواتي البنات

إلي ابني الصغير

إلي الزوج الكريم

إلي صديقتي ورفيقتي في هذا العمل العلمي

إلى كل من عائلتي عريبي و طهيري

عريبي لويزة

المقدمة

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تكن الثورة الجزائرية ميدانا تتكسر فيه النصال على النصال، وإنما كانت الثورة- كذلك – فسحة جمالية تتلاقى فيها عطاءات الوجدان. فتلتحم بالمواقف المختلفة مفضية إلى تجارب فنية ناضجة، قد تأتت لها من الدهر نار منضجة، تمحّصت فيها المقولات المختلفة. فأعطت نتاجا، نقف اليوم أمامه، موقف إجلال وإكبار، متسائلين: كيف استطاعت مثل تلك التجارب أن تؤدي وظيفتين في آن واحد؟ : وظيفة النضال. ووظيفة الإبداع !

وإذا قدرنا للشاعر حيثيات يعمرها الخوف والترقب، والترحل المستمر. فمتى واتته السكينة لإفراغ ذلك التوتر، وذلك الخوف، وذلك الأمل في صنيع فني ؟ أم أن الموقف المشحون بالقلاقل، كفيل بمفرده لإخراج العمل الفني في ثوب رائق جميل ؟ تقف القراءة إزاءه مشدودة مشدوهة. وكلما أجرت فيه أداة وجدت فيه طواعية وانفتاحا. وكأن النص – في تلك الظروف – اكتنز أسئلته الخاصة، فلم تعد تفاجئه القراءة. بل يتكيف مع مطالبها. فيكون لها النص مراغا واسعا تتفنن في استخراج أسراره وجواهره.

وربما كان للموقف المشحون بالمشاعر الحادة، و وقوف الموت والحياة جنبا إلى جنب في أية لحظة، واختلاطهما في تركيب عجيب غريب لم تعهده النفس من قبل، تتوجس منه خيفة، وتقبل عليه تتحسس جوهره ومبناه. سحر آخر ينضاف إلى سحر المضمون. إذ لم تعد الكلمات خجلى، مدارية، رواغة، وإنما كانت الكلمات "عارية" "صاخبة" تحمل حقيقتها في كفها. فلا تداري قارئا، ولا مستمعا. فقد تلاشى عنها ظل النفاق والخوف. فهي في بساطتها كالقذيفة خالية من حياة، وهي كالحياة مترعة بالمكر والخديعة في آن. وهي في رمزيتها كالوجود الملغز المشحون بالدلالة

والتحول.

إن الثورة انقلاب مستمر للأحداث، وتوال متسارع لها! فالموقف "الحار" قد لا يدوم طويلا، تلحظه "النفس الشاعرة" طرفة عين، فيرتسم في أغوارها فكرة غامضة، ويعتمل في مسالك قرارتها مولدا سلاسل من التأملات والانبثاقات المتلاحقة، تتزاحم فيها الصور تباعا. وعندما يتاح للتجربة أن تستكتب ذاتها، وتخرج واقعها، تبدو الكتابة وقد اكتنزت "اللحظة" و حيثياتها ومشاعرها. فيتحقق بذلك شرط الإبداع الصادق من جهة، وشرط نقاء التجربة من جهة أخرى.

إن فهم الموقف على هذه الصورة، يدفع ما رآه بعض النقاد من أن الشعر الثوري، شعر خطابي سطحي، يخلو من حرارة الإبداع، ودفء الصناعة. وقد وجدنا "صلاح خرفي" يدفع ذلك معتقدا أن الموقف لم يكن ليتيح للشاعر فرصة المراجعة. فالشاعر يهتبل اللحظة العابرة ليسجل موقفا طارئا، لم تكتمل عناصره وشروطه. ومن ثم يقف "صالح خرفي الشاعر" مترددا في اختيار المعيار الذي يزن به قيمة شعره، فيقول:« وكم تجاذبني نظرتان: نظرة مثالية فنية تزهدني فيها (مجموعته الشعرية)، إذ أعترف بأن أغلب قصائد المجموعة سجِّل تلبية للمناسبة العابرة، وتحت إلحاحها القاسي. وربما برر هذه التلبية الفورية عندي، إيماني بأن الثورة المشتعلة في حاجة إلى صوت يحمس لها، أكثر من حاجتها إلى نغمة "حالمة" تتغنى بها. وكنت لا أستنكف أن أجد نفسي غير مرة في موقف خطيب لا شاعر، ما دامت الثورة التي تلهمني، تجعلني كأني على صخرة من صخور الأطلس الشامخ أهيب بالثائرين الأحرار. وإذا كان العمل الفني في حاجة إلى "هدأة"، فتلك التى لم يكن في وسع الثورة المتجددة مع الدقائق والثواني أن توفرها لنا. ولم يكن في وسعنا

أن نمر بالحادثة البطولية مر الكرام، سعيا وراء الفن الأمثل.»

ويعد شاعر الثورة الجزائرية من أهم الذين وقفوا على صخور الأطلس, منشدا ومشيدا بالوحدة بكل معانيها ودوائرها, على المستوى الوطني, والمغربي, والعربي والإسلامي, وعندما يكون الشاعر بحجم مفدي زكريا" فحتما سوف يكون للشعر قيمته وجمال مفرداته لمن يبحث عن سمو القيمة للإنسان أيًا كان جنسه" فالسمو والعفة هي ما يسعى إليها الإنسان السوي" لذلك ليس غريبا أن نجد الدعوة إلى الفضيلة والوحدة في شعر هذا الشاعر الثائر على الظلم والابتذال, ومهما أردنا القول عن أبناء الجزائر عامة وهذا الشاعر خاصة لما أوفيناهم حقهم.

ودعوته للتوحيد تتجه دائما إلى الأفق الرحيب الذي يحتضن العالم العربي والإسلامي قاطبة, ولعلنا بحاجة إلى أن نسمع لزكريا أكثر من أن نسمع عنه, وندع مجال التحليل والقراءة النقدية للمتخصصين, ونحاول التملي في بعض عيون شعر زكريا. فما هي أهم قضية تناولها شعره؟ وما هي مكانة الثورة في قلبه وشعره؟ وهل تناول في شعره وحدة الوطن فقط؟ أم أنه تجاوز ذلك إلى وحدة الوطن والمغرب العربي كافة؟.

وللإجابة عن هذه الأسئلة وأخرى نقترح الخطة الآتية:

والتي لم تواجهنا فيها صعوبات خاصة ما يتعلق بندرة المصادر والمراجع وهذا لا يخفى على أي باحث يتطرق لشعر مفدي زكريا، وهذا ما دفع بنا لاختيار هذا الموضوع.

الخطة

الخطـــــة:

الوحدة الوطنية والمغاربية في شعر مفدي زكريا

المقدمة:

المدخل: الوحدة الوطنية في الشعر العربي الحديث.

الفصل الأول: مفدي زكريا حياته وآثاره.

- المبحث الأول: نبذة عن حياة الشاعر ومساره التاريخي.
- المبحث الثاني: آثاره الأدبية والفكرية.
- المبحث الثالث: أغراض الشعر ومضامينه عند مفدي زكريا.

الفصل الثاني: الوحدة الوطنية في شعر مفدي زكريا.

- المبحث الأول: الوحدة الوطنية في ديوان اللهب المقدس.
- المبحث الثاني: الوحدة الوطنية في ملحمة إلياذة الجزائر.
- المبحث الثالث: قصائد في ظلمات السجون.

الفصل الثالث: الوحدة المغاربية في شعر مفدي زكريا.

- المبحث الأول: الدعوة إلى الوحدة الكبرى.
- المبحث الثاني: الوحدة المغاربية في ديوان من وحي الأطلس.

الخاتمة.

المدخل

الوحدة الوطنية في الشعر العربي الحديث

حينما نطالع الصفحات التي سجلها التاريخ الحديث عامة والتاريخ العربي خاصة عن كفاح الشعوب في سبيل التخلص من الاحتلال الأجنبي تسترعي نظرنا وتثير وجداننا ثورة التحرير الجزائرية التي اندلع لهيبها في أول نوفمبر سنة 1954، واستمرت مشتعلة حتى حققت انتصارها وأعلنت استقلالها في 5 يوليه سنة 1962 بعد مائة واثنين وثلاثون عاما من الاستعمار لم تتقطع خلالها حلقات المقاومة والكفاح. فما إن تخمد السلطة الباغية جذوتها في منطقة حتى يعود الرماد إلى الاشتعال في منطقة أخرى، إلى أن هب الشعب عن بكرة أبيه في ثورته الكبرى محطما قلاع الظلم والظلام.[1]

ولقد أكدت هذه الثورة أن أعتى الأسلحة التي كانت في حوزة الاستعمار الفرنسي وأدهى الخطط التي أحكمها بمؤازرة حلف الأطلنطي في العقدين الخامس والسادس من القرن العشرين لم تكن لتستطيع أن تقهر إرادة من آمن أن الحياة لا تستحق أن تُعاشَ في ظل العبودية. فلا غَروَ أن قَدَمَ شَعبُ الجزائر على مذبح الحرية واستعادة الأرض والهويَة والكرامة أغلى الضَحَايَا الذين ضمخت دماؤهم الزكية تراب وطنهم، وماتوا مثل الأشجار واقفين وهم يرددون :"الله أكبر، وتحيا الجزائر".[2]

وقد أدركنا بمزيد من مشاعر الاعتزاز والتقدير أن هذا الشعب سوف ينتزع من براثن الاستعمار وطناً عربياً عزيزاً، قادراً على أن يأخذ مكانة من الوطن الكبير الأم ومكانته في العالم، وأن يقوم بدوره في دعم الحضارة العربية، ويُسهم في ازدهار حركة الحرية والعدل والتقدم التي يقودها المناضلون من أبناء الشعوب التي عانت طويلا من التخلف الذي فرضته عليها القوى الاستعمارية، ومن حرمانها من أدنى حقوق الإنسان. وكم تطلعنا إلى بشائر الأمل في انتصار الثورة الجزائرية ونحن نرى شعبها يذهل الصديقَ والعَدُو بصموده وتضحياته التي تشبه الأساطير، فقد بلَغَ عددُ

[1] - حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص،17.
[2]- نفس المرجع: ص، 17.

شهدائه مليوناً ونصف المليون. [1]

وكنا ندرك أيضاً أن معركة الشعب الجزائري ليست معركته وحده, ولا هي معركة الوطن العربي في الشمال الغربي الإفريقي فحسب, وإنما هي معركة العالم الثالث كله, معركة الشعوب المستَعبَدَة المنهوبة ضد أعدائها من المستعمرين المستغلين, معركة التاريخ لكي يشق طريقه الحَتميَ إلى الأمام. ولم يغب عن وعينا أن الاستعمار في أبشع صُوَره- وهو القائم على الاستيطان واستئصال الجذور, بطمس الشخصية الوطنية, وتشويه الدين, ووأد اللغة الأصلية, وهي وعاء الثقافة – يحارب في الجزائر بِضَراوَةٍ استجمعَ فيها كل أدواته وموارده الجهنمية ضد شَعبٍ أَعزَلَ, إلا من درع إيمانه بحقه, وبضع بنادق صيد ابتدأ بها معركته الصعبة الطويلة, ثم استطاعت كتائبه من الفدائيين أن تَغنَم في هجماتها على معسكرات العدو الغاضب أنواعًا متعددة من الأسلحة حاربوه بها. [2]

وكان لثورة 23 يوليه 1952 التي قادها الزعيم جمال عبد الناصر دور كبير في امتداد ثوار الجزائر بالسلاح والعتاد عن طريق تونس, فضلا عن دعمها السياسي لهم في المحافل الدولية, وعلى رأسها منظمة الأمم المتحدة, لإقناع الرأي العام العالمي والمنظمات الدولية والإقليمية بعدالة القضية الجزائرية, ودَحض مقولة المستعمر "إن الجزائر جزء من فرنسا ". [3]

وأما "إذاعة صوت العرب" التي كانت توالى بَثَ أنباء الكفاح المسلح الذي يخوضه أبناء الجزائر لتحرير بلادهم, وتشيد ببطولاتهم, لشد أَزرِهِم, وتوعية الرأي العام داخلياً وخارجياً بالدوافع الوطنية النبيلة التي فجرت ثورة الفاتح من نوفمبر كي يتضامن معها العرب. وكان الثوار يستمعون إلى هذه الإذاعة في معاقلهم على جبال "الأوراس "من خلال الأجهزة الصغيرة التي استطاعوا تصنيعها, أو أمدتهم

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 18.
[2]- نفس المرجع: ص، 18.
[3]- نفسه: ص، 19.

بها بعض البلدان العربية, أو التي غنموها في معاركهم. وبلغ من تقديرهم للرسالة التي اضطلعت بها تلك القناة الإذاعية أن أُطلق على أحد المجاهدين اسم "صوت العرب".[1]

وقد وفدت إلى الجزائر بعثات صحفية لرؤية الوقائع رَأىَ العين, ونَقلِ أخبارها إلى العالم, لدحض المفتريات والشائعات الكاذبة التي كانت تذيعها وتنشرها السلطة الاستعمارية ومن دار في دائرتها, ولفضح الجرائم التي كان يرتكبها جيش الاحتلال ضد المدنيين بالمخالفة لأحكام المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي وقعت عليها الدول الأوربية, ومنها فرنسا, كما أرسلت بعض الدول العربية إلى المناضلين الجزائريين بعثات طبية لعلاج الجَرحَى, وكان الأديب الدكتور يوسف إدريس أحد الأطباء اللذين قاموا بواجبهم القومي والإنساني, وقد التقى ببعض، المجاهدين في مواقعهم.[2]

واستقبلت بعض الدول العربية مَن أوفدتهم إليها جبهة التحرير الجزائرية من الشباب المنخرطين بها لتدريبهم على فنون القتال المشروع. والتحق بالأزهر ودار العلوم لتلقي العلم بَعضُ هؤلاء الشباب, ومنهم هَوارِى بُومَديَن الذي أصبح بعد ذلك رئيساً لجمهورية الجزائر.[3]

واستوحى الشعراء في سائر الدول العربية الثورة الجزائرية, فصدرت مجموعة شعرية ضمت قصائد لعدة شعراء باسم "جميلة بوحيرد", إ ذا اعتبروها رمزاً لتلك الثورة, لنضالها الذي أدى إلى الحكم عليها بالإعدام, ثم استبدال السجن بهذا الحكم, بعد أن ثار الرأي العام العربي والعالمي. كما كتب الأديب الشاعر عبد الرحمن

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 19.
[2]- نفسه: ص,19.
[3]- نفسه: ص، 20.

الشرقاوي مسرحية شعرية باسمها أيضاً, مُثِّلَت في المسرح القومي. ووضع الموسيقىُ محمد فوزي لحن النشيد الوطني الجزائري "قسما" الذي كتبه الشاعر مفدي زكريا.[1]

لكل ثورة أو حركة تحرير شُعراؤها اللذين يمثلون ضمير شعبها, ويصورون ما يُخالج صدر هدا الشعب من آمالٍ, وما يعانيه من آلام, وينتصرون في قصائدهم وأناشيدهم للثورة, فَيُمَجدون رجالها و يُخَلدون شهداءها, ويحضُون الشباب على الانضمام إلى ركب النضال, ويحثُّون من تَقصُر طاقته عن القتال على بَدل المال, أو تقديم ما يستطيع من سائر وسائل العَون إلى المحاربين أو إلى الأيتام الذين فقدوا آباءهم, والأرامل اللاتي فَقَدنَ أزواجهن.[2]

ومن ثَمَ فإن هؤلاء الشعراء يقفون في صفوف الثورة و يدافعون عنها بألسنتهم وأقلامهم. وهم يُسَمَون شعراء المقاومة, لأن الدور الذي يضطلعون به لا يقل أهمية ولا أثراً عن دور المقاومين بالسلاح, فالكلمة البليغة الصادقة تنفد إلى أعماق النفس فتهز الوجدان, وتسهم في تعبئة القوى على درب الكفاح. ولا يؤدِّ الشاعر الوطني في أبناء قومه فحسب, بل كثيراً ما يصل صوته عبر وسائل الإعلام إلى البلاد المجاورة لوطنه, وقد يكون من بينها بلد العدو نفسه إذا تُرجِمَت قصائدُ هدا الشاعر إلى لغته, مما قد يؤدى إلى كسب مزيدٍ من أنصار الثورة أو المتعاطفين مع شعبها, وقد تتسع دوائر هدا التأثر حتى تشمل كثيراً من البلدان على اختلاف مواقعها وتباين أنظمتها.[3]

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 20.
[2]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص، 21.
[3]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 21 .

وشعراء الثورة الجزائرية الذين انضموا إليها وناصروها وضَحُوا في سبيلها بأمنهم أو حريتهم أو حياتهم عديدون, فمن الأولين محمد السعيد الزاهرى, وزهير الزاهرى, وأبو اليقظان بن الحاج عيسى, وأبو بكر مصطفى بن رحمون, والهادي السنوسي, وأحمد سحنون, ...ومن الأخيرين الدكتور أبو القاسم سعد الله, الطيب الشاعر محمد الصالح باويه, ...الأخضر السائحى, أطال الله أعمارهم. ويقع في الصدارة من هؤلاء جميعاً الشاعران "مفدي زكريا "والشيخ "محمد العيد خليفة " رحمهما الله, فقد وَاكَبَا الثورة في جميع مراحلها, وربطا مصيرهما بها. وخَلَدَا اسميهما كأكبر شاعرين جزائريين في عصر ثورة التحرير, فما إن تُذكَر هذه الثورة حتى يُذَكَرا معها.[1]

ويُعد هذان الشاعران فَرسَي رِهانٍ في حلبة حركة التحرير, ومثلهما في اقتران اسم كل منهما بالآخر كمثل شوقي وحافظ في مصر. وإذا كان محمود سامي البارودي قريباً للأمير عبد القادر الجزائري, فكلاهما كان رَبَ السيف والقلم, فإن مفدى و محمد العيد حفيدان للأمير عبد القادر في الشعر, ورائدان من رُوَاد الشعر الحديث, كما أن "شوقي"و"حافظ"حفيدان للبارودي, ورائدان بعده لمدرسة الإحياء الشعري.[2]

ويتقاسم الشاعران الجزائريان مفدي والعيد الشهرة الأدبية والمنزلة الوطنية, فالأول يُلقب بشاعر النضال السياسي والثورة المسلحة, وهو صاحب النشيد الرسمي للجمهورية الجزائرية "قسما بالنازِلات", والثاني هو شاعر جمعية العلماء الجزائريين المسلمين ولسانها.وكلاهما ضحى بحريته في سبيل الثورة, إذ قضى

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص ، 22.
[2]- نفس المرجع: ص, 22.

مفدي في عالم السدود والقيود شطراً من عمره, وفُرضت على الثاني الإقامة الجبرية في بلده "بسكرة ". وكلاهما من جنوب الجزائر, وقد وُلِدَا ورَحَلا عن الحياة في سنوات متقاربة, إذ عاش محمد العيد من عام 1904 إلى عام 1979, وعاش مفدي من عام 1908إلى عام1977.[1]

وقد أثر أحمد شوقي في عددٍ من الشعراء المشارقة والمغاربة فهو علمٌ من أعلام القصيدة العربية الحديثة, ترك بَصماتٍ واضحة في الشعر العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر, وانتشرت أشعاره مشرقاً ومغرباً وهو على قيد الحياة, وأسهم, بصورة أجلى, في بَعث القصيدة العربية الأصيلة وإحيائها, وكان له, كذلك أثرٌ بينٌ في تجديدها. يقول: محمد سعيد العريان في تقديمه للجزء الرابع من "الشوقيات"":كان شوقي, رحمه الله, شاعراً ملأ سمع الشرق, وما يلفظ من القول إلا لَقفَته الآلاف عن الآلاف من أبناء الأمة العربية, تنشده وتتغني به وتضربه مثلا.[2]

وما أحسب شاعراً في الأمة العربية, منذ كانت وكان الشعر, قد ذهب صِيتُه في الناس حيا مذهب شوقي, ولا بلغ مَبلغَه, وقد كان حَقيقاً بما بلغ, لا من أنه شاعر العربية الأول, ولا مِن أن الأمة العربية قد عَقمت فلم تنجِب مثله في تاريخها المتطاول, ولكنه جاء على فترة انقطع فيها أمل الآمِل في نهضة الشعر العربي بعدها ناله من الانحطاط والرِكة وضيق المذهب وسوء التناوُل. وكأنما كان البارودي من قبلِه إرهاصاً له, ودعوة إليه, وتنبيهاً إلى فضله ومكانه. وقد كان البارودي, بما اجتمع له من أدوات الشعر وبما تهيأ له من أسبابه العامة والخاصة , أولَ من بعثَ الحياة في هذا الجسد الهامد, ونفخ فيه من قوته, وخلع عليه من شبابه, فكان

[1]- نفس المرجع: ص، 23.
[2]- ميخائيل نعيمة: الغربال, مؤسسة نوفل, بيروت, ط12 ، 1981 ص، 213

تصديراً بليغا لهذا الفصل الجديد في تاريخ الشعر العربي؛ فلما خلا مكانه, تلفت الناس ينطرون على حَذر وخشية, يريدون أن يسمعوا نغماً صافياً كهذا الذي عَودَهم البارودي أن يسمعوه من إنشاده وتطريبه, وما منهم إلا من ظن أن الشعر بعده منتكِسٌ بعلته, وأن الرجلَ الذي كان يمده بأسباب الحياة والقوة قد ذهب, فلا سبيل إليه بَعدُ ولا أملَ.في هذه الفترة ظهر شوقي ..."[1].

وسنحاول الوقوف عند مجموعة من النقط التي يبدو لنا فيها أثر شوقي في جوانب مِن مُنجَز مفدي الشعري, كالآتي:

يقول مفدي زكريا في البيت الأخير من قصيدته "حروفها حمراء": {الخفيف التام}

اعترافٌ...فدَولةٌ...فسَلامٌ... فكلامٌ...فمَوعِدٌ...فجلاءٌ..

فهذ ا البيتُ شديدُ التأثر بقول شوقي :{الخفيف التام}

نظرَة, فابتِسامة, فسلامٌ فكَلامٌ, فمَوعِدٌ, فلِقاءُ

ففِراقٌ يكُون فيه دَواءٌ أو فِراقٌ يكون فيه الداءُ

ويقول مفدي في قصيدته "ذروا الأحلام واطرحوا الأماني":{الوافر التام}

ومَن طلبَ الكرامةَ, وابتغاها يُقدِم مَهرَها المُهَجَ الحِرَارَا

معنى هذا أن من أراد تحقيق الكرامة أو أي شيء آخر, فمن الواجب عليه أن يسعى إليه بالجد والاجتهاد, تاركاً الكسلَ والخُمولَ والتكلان؛ لأن "السماء لا تُمطر ذهبا ولا فض"كما يقال. ويمكن أن نلمس خيطا رفيعا دقيقاً بين هذا البيت وبيت شوقي الشهير الذي أجراه مَجرى الحكمة:{الوافر التام}[2]

وما نيل المَطالب بالتمني ولكن تُؤخَذ الدنيا غِلابَا

[1]- نفس المرجع: ص, 213.
[2]- فوزي عطوي: أحمد شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ, سلسلة أعلام الفكر العربي.

ويقول مفدي في قصيدة عينيةٍ له بعنوان "معجزة الصانع ": {الكامل التام }

ياجَارة الوادي , ببردونها[1] طرِبتُ ,في فِردَوسِكِ الماتِعِ

ولا شك في أن الشاعر قد تأثر في هذا البيت الشعري بشوقي الذي سبق أن نَظَمَ قصيدته في هذا المنحى. يقول في قصيدته الموسومة ب"جارة الوادي ":

ياجارة الوادي طربتُ وعادَني ما يُشبه الأحلام من ذِكراكِ

ونلمس في أشعار شوقي حضور "الوطنية " الصادقة والدافقة, ذلك بأنه كان قويَ الارتباط بوطنه, شديد الالتحام بمجتمعه؛ يقول د.فوزي عطوي:"إن أحمد شوقي شاعر وطني, صادقُ العاطفة, دافئ النبرة, عاش قضايا عصره, ودافع عنها دفاعا مشكورا".[2]

ونلفي في شعر شوقي كذلك الولاء العميق للعُروبة, والتعبير الصادق عن مآسي العرب, وتطلعاتهم. يقول أحمد زكي عبد الحليم:" كان شوقي شاعر الحرية و الوطنية, ليس بالنسبة لمصر فقط, وإنما هو شاعر العروبة قبل كل شيء. هو الطائر العربي الذي يشدو فوق الأفنان العربية ولا يتقيد بحدود أوطانٍ صنعها الاستعمار ومزقها إرباً. هناك فوق كل شيء, الوطنُ العربي الكبير".[3]

ومن الأبيات التي تبرز الحب الخالص الذي كان يكنه شوقي لوطنه ما يأتي: {الخفيف التام}

وَطني لو شُغِلتَ بالخلد عنه نَازعتَني إليه في الخُلدِ نفسي

ونجد هذه الوطنية واضحة, بقوة, في العديد من قصائد مفدي زكريا؛ من ذلك قوله في قصيدته " أنا ثائر"

[1]-البردوني: نهر موجود في "زحلة" بلبنان.
[2]- فوزي عطوي: أحمد شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ, ص, 4-44.
[3]- أحمد زكي عبد الحليم: أحمد شوقي شاعر الوطنية, ص, 162.

أنا ثائِر

في الجَزائِر

أنا ثائر

إن أمُت:تحيا الجزائِر...[1]

تتخلل بعضَ قصائد شوقي أبيات حِكمية بليغة. قوله :{الوافر التام}

وما نيلُ المطالب بالتمَني ولكن تؤخَذ الدنيا غِلابا

وما استعصى على قومٍ مَنالٌ إذا الإقدامُ كان لهم رِكابا

ويقول كذلك:{البسيط التام}

وإنما الأمَمُ الأخلاقُ ما بَقيَت فإن هُم ذهبَت أخلاقُهم ذَهَبوا

ومن يتصفح قصيدَ مفدي زكريا يُلفي فيه, كذلك, أبياتاً حِكمية قيمة. وهو ما يمكن عدُه تأثراً بشوقي. يقول مفدي مثلا:{البسيط التام}

وما الزَعامَةُ أقوالٌ وشَقشَقةٌ إن الزعامةَ إصلاحٌ وتشييدُ [2]

لكلٍ من شوقي ومفدي قصائدُ في تصوير حال الأمة التي تعاني الاضطراب و الانكسار والبؤس في زمن أفول نجمها. وقد حاولت هذه القصائد نقل آلام العرب و آمالهم في لبنان وغيرها من أقطار الوطن العربي الكبير.

يستعمل شوقي فعل الأمر كثيراً في افتتاح قصائده عن المعلم:{الكامل التام}

قُم للمُعلم وَفهِ التبجيلا كاد المُعلمُ أن يكون رَسولا

وعندما نستقري قصائد مفدي ونتصفحها نلفي أن عدداً منها استُهل بفعل الأّمر كما فعل شوقي تماماً.يقول في مطلع قصيدته "لاتعجبوا إن جاءكم برسالة ":{الكامل

[1]- مفدي زكريا: اللهب المقدس.

[2]- أنظر مثلا قصائده: قالوا نريد- على عهد العروبة سوف نبقى- لا تعجبوا..الخ.

التام}

قِف بي,أقدِس للحَياة نِضالَها[1] فَلكَم وقفتُ, أقَدسُ استِقلالها

يحصر معجم الثورة عند كلاً من شوقي ومفدي. ومن الثابت أن كلا من مصر والجزائر قد خضعت لنير المستعمر الغربي الغاشم؛ فكان لِزاماً على الشاعرين بحكم وطنيتهما الصادقة والمتدفقة, أن يعبا عن موقف مجتمعيهما من الاستعمار, وأن يشحذا هِمَمَ الجماهير للثورة ومُدافعة الغُزاة بالنفس والنفيس.

ونجد معجم الثورة حاضراً بقوة في جُل شعر مفدي؛ فهو "شاعر الثورة الجزائرية" كما أسلفنا القيل, والمعبر عن هموم شعبه وانشغالاته وتطلعاته أصدق تعبير والثورة عنده تمتحُ من العروبة و الإسلام, وتتجاوز نطاق الجزائر لتشمل الوطن العربي رُمتَه. يقول د.نشاوي عن مفدي :"فلسفة الثورة عنده تنبع من الدين و العروبة؛ فلم يفصل بين وطنه والبلاد العربية, وكافح دائماً من أجل لغته وقوميته وإسلامه, فكابد من جراء ذلك ألواناً من الآلام ".[2]

[1]-الضمير ها هنا عائد على بلاد المغرب.

[2]- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر, ص, 358.

الفصل الأول
مفدي زكريا حياته وآثاره

المبحث الأول
نبذة عن حياة الشاعر ومساره التاريخي

المبحث الثالث
أغراض الشعر ومضامينه عند مفدي زكريا

المبحث الثاني
آثاره الأدبية والفكرية

المبحث الأول

نبذة عن حياة الشاعر ومساره التاريخي

نبذة عن حياة الشاعر ومساره التاريخي:هو زكريا بن سليمان بن يحي بن الشيخ سليمان بن الحاج عيسى, لقبه زميل البعثة الميزابية و الدراسة الفر قد سليمان بوجناح ب:"مفدي", فأصبح لقبه الأدبي الذي اشتهر به. ولد يوم الجمعة 12 جمادى الأولى 1326 ه, الموافق ل:12 جوان1908م, ببني يزقن, ولاية غرداية.[1]

بدأ مفدي زكريا مساره في مسقط رأسه متعلقًا بكتاب البلدة, حيث حفظ جزءًا من القرآن ومبادئ العربية والفقه, ثم اصطحبه والده معه وهو ابن سبع سنين إلى مدينة عنابه شمال شرق الجزائر التي كان تاجرًا بها, وفيها أتم حفظ القرآن, ثم جعل يتردد بينها وبين مسقط رأسه ولم تنتظم دراسته, حتى سنة 1922 إن قرر والده إرساله إلى تونس, فالتحق بمدرسة السلام القرآنية, وبعد سنتين انتقل إلى المدرسة الخلدونية, ثم تحول إلى جامع الزيتونة, وأخذ عن علمائها دروس اللغة والبلاغة والأصول, وكان خلال ذلك طالبا ذكيا نجيبًا, برزت مواهبه الشعرية مبكرًا, وشغف بذوات الشعر والأدب التي كان يعقدها الأديب العربي الكباري. كما كان يتلقف ما يصل إلى تونس من مجلات شرقية تبعث النخوة و الوطنية فيتشربها و يتخذ مواضيعها مجالا للتدرب على الإنشاء والكتابة. نثرًا و شعرًا. وكان يعرض شعره على أساندته في البعثة العلمية الميزابية بتونس لتقويمه, حتى انقاد له القريض.[2]

واكب الحركة الوطنية بشعره ونضاله على مستوى المغرب العربي فانخرط في صفوف الشبيبة الدستورية,في فترة دراسته بتونس, فاعتقل لمدة نصف شهر, كما شارك مشاركة فعالة في مؤتمرات طلبة شمال إفريقيا؛ وعلى مستوى الحركة

[1]- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم و قصائد أخرى,ص, 1.
[2] الموقع الإلكتروني: منتديات بوابة العرب.

الوطنية الجزائرية مناضلا في حزب نجم شمال إفريقيا, فقائدا من أبرز قادة حزب الشعب الجزائري, فكان أن أودع السجن لمدة سنتين 1937- 1939.[1]

وغداة اندلاع الثورة التحريرية الكبرى انخرط في أولى خلايا جبهة التحرير الوطني بالجزائر العاصمة, وألقي عليه وعلى زملائه المشكلين لهذه الخلية القبض, فأودعوا السجن بعد محاكمتهم, فبقي فيه لمدة ثلاث سنوات من 1956/04/19 م إلى 1959/02/01 م.[2]

بعد خروجه من السجن فر إلي المغرب, ومنه انتقل إلى تونس, للعلاج على يد فرانز فانون, مما لحقه في السجن من آثار التعذيب. وبعد ذلك كان سفير القضية الجزائرية بشعره في الصحافة التونسية والمغربية, كما كان سفيرها أيضًا في المشرق لدى مشاركته في مهرجان الشعر العربي بدمشق سنة 1961 م.[3]

ثم رجع من تونس إلى الجزائر, وتوجه للعمل التجاري ولكنه لم ينقطع عن مجال الفكر والأدب, وإن لم يكتب له النجاح في المجال التجاري رغم تقلبه في أنواع من النشاطات وانطلاقه في مشاريع عديدة كان نصيبه فيها الفشل.

بعد الاستقلال أمضى حياته في التنقل بين أقطار المغرب العربي, وكان مستقره المغرب, وبخاصة في سنوات حياته الأخيرة. وشارك مشاركة فعالة في مؤتمرات التعرف على الفكر الإسلامي.[4]

توفي يوم الأربعاء 02 رمضان 1397 ه,الموافق ليوم 17 أوت 1977 م,

---

[1]- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى, ص, 1.
[2]- نفس المصدر: ص, 02.
[3]- نفس المصدر: ص, 02.
[4]- نفس المصدر: ص, 02.

بتونس ونقل جثمانه إلى الجزائر, ليدفن بمسقط رأسه بني يزقن.[1]

حامل لوسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الأولى من عاهل المملكة المغربية محمد الخامس, بتاريخ:21 /1961/04 م؛ ووسام الاستقلال, ووسام الاستحقاق الثقافي, من رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة؛ ووسام المقاوم من رئيس الجمهورية الجزائرية الشاذلي بن جديد, بتاريخ:25 /1984/10 م؛ وشهادة تقدير على أعماله و مؤلفاته, وتقديرا لجهوده المعتبرة,ونضاله في خدمة الثقافة الوطنية من رئيس الجمهوري الجزائرية الشاذلي بن جديد, بتاريخ:08 /1987/07 م؛ ووسام الأثير من مصف الاستحقاق الوطني من فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة, بتاريخ:04 /1999/07 م.[2]

وفي شعر مفدي زكريا عامة, مظاهر واضحة للتأثر بالثقافة العربية التي نشأ في ظلها, فهو يَمتَحُ[3] من المعين.القرآني كثيرًا من الألفاظ والعبارات, ويقتبس من قصصه, ويُثرى قصائده بِصورٍ مُستَمَدةٍ من كتاب الله الكريم, كما يستلهم معانيه, ومن ذلك قوله في رثاء الشهيد أحمد زبانا:{زعموا قَتَلَهُ وما صلبوه}, فهو مقتبس من الآية الكريمة التي نزلت في شأن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:"ومَا قَتلُوهُ وما صَلَبُوهُ ولكن شُبِهَ لهم" [4]. وقوله :{يا سماء اصقعى الجبانَ ويا أرض ابلعي القانِعَ الخنوع البليدَا}مقتبس من الآية: [5]"وقِيلَ يا أرض ابلَعِي مَاءَكِ, وَسَمَاءُ أَقلِعِي".[6]

أما تضمين القصيدة بعض ما جاء في قصص القرآن فإنه يتجلى في تشبيه الشهيد

---

[1]- نفس المصدر: ص, 02.
[2]- نفس المصدر: ص, 03.
[3]- متح الشئ: نزعه وا ستخرجه, والمراد هنا: يستمد.
[4]من الآية 157 من سورة النساء.
[5]من الآية 44 من سورة هود.
[6]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 42.

بالنبِيينِ عيسى و موسى, كما يذكر الشاعر جبريل عليه السلام, ويستعمل كلمة المعراج, ويزين صياغته بعبارات تراثية, مِثل المثَلِ الشرود:

وسَرَى في فَمِ الزمان زبانا مَثَلًا في فم الزمان شَرُودَا .[1]

ولا تقتصر مصادره الثقافية على التراث والتاريخ العربي الإسلامي, بل تمتد لتشمل التاريخ عامة في قديمه وحديثه, فيذكر واقعة أَسرِ الملك لويس التاسع في أثناء غارته الصليبية على مصر, وإبداعه في دار ابن لقمان بمدينة المنصورة مقيدًا في الأغلال, وذلك في قوله- معايرًا فرنسا:

{وجعلنا لجندها"دار لقمان"قبورًا ملء الثرى ولُحودا}.[2]

كما يذكر مقولة "هوشى منه"محرر الهند الصينية من الاستعمار الفرنسي:

{الاستعمار تلميذ بليد لا يتعظ من الدروس}وذلك في الأبيات التي أورد فيها ذكر هذا الزعيم ثم, وَجه الخطاب إلى فرنسا ساخرًا:

{نَسِيَت دَرسَها فرنسا فلقَنَا فرنسا بالحرب دَرسًا جديدا}.[3]

[1]- نفس المرجع: ص, 43.
[2]- نفس المرجع السابق: ص, 43.
[3]- نفس المرجع: ص, 43.

أما عن أثر الحياة السياسية والثقافية في نشأته الأدبية فإن المناخ الثقافي الذي تَنفَسَ فيه مفدي زكريا أثناء مقامه في تونس خلال العقد الثاني من القرن العشرين, والروح القومية التي كانت سائدة في العالم العربي في تلك الحقبة, وتمثلت في المقالات الصحفية, والاجتماعات التي عُقدت للتوعية بضرورة العمل على الخلاص من الاستعمار, أن خَاض شاعرنا غمارَ الحركة السياسية الناشئة, ونذر موهبته في الشعر والنثر للدفاع عن حق الشعوب العربية عامةً, و شعب المغرب خاصة في الحرية والاستقلال. فتدفقت قريحتُه بالقصائد التي تحثُ على الكفاح, وهو يقول ذلك:"لَما كانت حياتي الأدبية متصلة اتصالاً جذريًا بنشاطيالقومي, فقد كان 'القصيد الثاني'في تمجيد جهاد الريف في المغرب الأقصى بقيادةالزعيم الخالد الأمير عبد الكريم الخطابي, وقد نشرت هذه القصيدة في جريدة 'لسانالشعب'بتونس بتاريخ 8 سبتمبر 1925, كما نشرتها جريدة'اللواء'وجريدة'الأخبار'القاهريتان.[1]

وعن رحلته لطلب العلم في تونس يحدثنا الشاعر في حوار أجراه معه الصحفي الأديب الجزائري بلقاسم بن عبد الله, وضمنه كتابه "شاعر مجد الثورة", فيقول: "زاولتُ دراستي الابتدائية والثانوية والعالية بحاضرة تونس, متنقلا بين مدرسة السلام والمدرسة القرآنية الأهلية, ثم الجامع المعمورة'الزيتونة', والصادقية, و الخلدونية, ومعهد الآداب العليا بالعطارين.." . ويستطرد في الحديث عن محاولاته الأولى في نظم الشعر:"شرعت في قَرضِ الشعر سنة 1925 بقصيدة في رثاء 'كبش الفداء'بعيد الأضحى, متأثرًا بمذهب أبى العلاء المعرى, وأتذكر منها مطلعها, وبيتًا

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 29.

آخر: [1]

لَهفي علَى شَاةٍ لنا قَد قُيدت للذبح وَهي نقيَةُ الأَدرَانِ

استَضعَفُوكِ فَلَذَ لحمُكِ عندهم هلَا استلذُوا لَحمَ لَيثٍ قَانِي[2]

ومن الواضح أن هذين البيتين تقليدٌ للعبارة المأثورة عن المعرى, وهى قوله مخاطبًا الديك:"استضعَفُوكَ فذبحوك, ولوكُنتَ ذا نَابٍ لَوَقرُوكَ". [3]

وقد عاد سنة 1926 إلى الجزائر فتزوج و دخل معركة الكدح الجدي, فعمل أجيرًا في محلات تجارية بقسنطينة و الجزائر, وممثلًا لمحلات تجارية لبيع القماش وغيره, كما فتح له محلاً خاصًا به لبيع الأقمشة بالجزائر, ومن دون أن يهمل النشاط الأدبي والسياسي.[4]

وقد أحتك مفدي زكريا بعدد من التونسيين, نذكر منهم الشيخ عبد الثعالبي مؤسس الحزب الحر الدستوري, والوطني المشهور لموافقة الشجاعة ضد الاستعمار, وكان الثعالبي على علاقة وطيدة بعم مفدي "الشيخ صالح", حيث كان يتزاوران ويجتمعان كثيرًا بمنزل هذا الأخير نتيجة نشاطهما معًا في الحزب المذكور وكان مفدي يرى نشاطهما ويسمع لأحاديثهما و مشاريعهما النضالية فيعيها, وتركت في شخصيته أثرًا قويًا بالإضافة إلى ذلك ما كانت تعيشه تونس آنذاك, فتضافرت كل من البيئة الضيقة التي كان يحيا فيها مفدي و المتمثلة في مسؤولي البعثة, والبيئة الواسعة والمتمثلة في النشاط السياسي الوطني, وكل هذه الآثار تضافرت في توجيه مفدي وجهة وطنية صحيحة, وجعلته ينظر إلى مستقبل الجزائر والوطن العربي من خلال

[1]- نفس المرجع: ص, 27-28.
[2]- القاني: الأحمر اللون.
[3]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 28.
[4]- عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما, ص, 71.

سبيل واحد هو التحرر الكامل ورحيل الاستعمار, نابذا عن فكره كل الحلول الوسطية التي تسعى إلى تحسين الظروف في ظل الاستعمار, مهما يكن شكل ذلك الاستعمار, فلا قيمة لأي ازدهار ما لم يحصل التحرر النهائي.[1]

كما أن تواجده بتونس واختلاطه بالأواسط الطلابية جعلت علاقته تتطور بأبي اليقظان وبالشاعر رمضان حمود, وبعد عودته إلى الجزائر أصبح عضوًا نشطًا في جمعية طلبة مسلمي شمال إفريقيا المناهضة لسياسة الإدماج, إلى جانب ميوله إلى حركة الإصلاح التي تمثلها جمعية العلماء, انخرط مفدي زكريا في حزب نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب الجزائري, وكتب نشيد الحزب الرسمي "فداء الجزائر", أعتقل من طرف السلطات الفرنسية في أوت 1937م رفقة مصالي الحاج. وأطلق سراحه سنة 1939م, ليؤسس رفقة باقي المناضلين جريدة الشعب ,لسان حال حزب الشعب.[2]

أعتقل عدة مرات في فيفري 1940 '6أشهر' ثم في 8 ماي 1945 '3سنوات', وبعد خروجه من السجن انخرط في صفوف حركة الانتصار الديمقراطية, انظم إلى الثورة التحريرية في 1955, وعرف الاعتقال مجددا في افريل 1962 , سجن بسجن بربروس"سركاجي حاليا" مدة ثلاث سنوات وبعد خروجه من السجن فر إلى المغرب ثم إلى تونس أين ساهم في تحرير جريدة المجاهد إلى غاية الاستقلال, و عندما انتزعت الجزائر استقلالها عاد مفدي إلى الجزائر, وأنشأ مكتبا للأعمال التجارية بالعاصمة, لكنه لم يعمر إلا قليلا, وأغلقه ورجع إلى تونس, ومنذ سنة 1963حتى سنة 1969 وهو يعيش بتونس وقد تسلم عن طريق قرض لاستثمار سنما "ويتيس" الواقعة بنهج الملازم تاج بالعاصمة التونسية, وفي سنة 1969 غادر تونس متجها إلى المغرب, وإن كان يتردد كثيرًا بين الجزائر وتونس.[3]

---

[1]- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدى زكريا, دراسة تحليلية, ص, 30.
[2] - الموقع الإلكتروني: http ://Ar. Wikipedia. Org/ Wiki مفدى زكريا.
[3]- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا, ص, 41.

هذا بالنسبة لنشأته الوطنية والسياسية, أما لنشأته الثقافية, فيقول عن طريقهِ في الشعر"فأنا فيه أستاذ نفسي, غير أني أعرض بضاعتي على أساتذتي رؤساء البعثة, ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على الشاعر الخضراء الشاذلي خزندار, ولي اطلاع شخصي على العروض والموازين".[2]

أما عن رحلاته فقد قام مفدي زكريا برحلات مكثفة دامت أربعة أشهر ونصف الشهر تنقل خلالها بين دول عربية شقيقة, لم تكن رحلات مفدي تلك لهدف الترفيه و الاستجمام, لكنها كانت عملية مليئة بالنشاط الثوري, وقد كان مفدي في أثنائها لا يفتأ بعقد الندوات ويلقى المحاضرات وينشد من قصائده, ويتحدث عن الثورة الجزائرية في مهرجانات تعقد خصيصًا له, وقد استقبله الأشقاء فيها بكل حفاوة وتكريم واحتلت نشاطاته الصفحات الأولى من مختلف الصحف, وسُجلت برامج إذاعية مطولة كلها حديث عن الجزائر وثورتها.

والحق أن مفدي نجح في مهمته تلك أيما نجاح, يتجلى ذلك في الدعوات الملحة التي انهالت عليه من مختلف الأقطار العربية التي تطلب منه زيارتها, وإسماعها صوت الجزائر و ثورتها.[3]

و في جريدة"الصباح"التونسية:"بارحنا صديقنا شاعر الثورة الجزائرية, الأستاذ مفدي زكريا, بارحنا منذ شهورٍ للإسهام باسم الجزائر في مهرجان الشعر العربي المنعقد في دمشق, حين ألقى قصيدًا...ثم طفحت الصحافة السورية ومن قبلها المصرية بأحاديثه الأدبية والسياسية حيث ألقى أضواءً على ثورة الجزائر, وكفاح شعب الجزائر لفتت الأسماع والأنظار, ثم انتقل إلى لبنان, فاستقبلته المحافل الأدبية والسياسية هناك بكل ترحاب وأفسحت له المجلات والصحف أعمدتها لتنشر أدبه و تعاليقه الأدبية..."[3]

وفي هذه الجولات نفسها قام مفدي زكريا باتصالات ببعض الفنانين العرب قصد

[2]- مجلة آمال: نماذج من الشعر الجزائري المعاصر {شعر ما قبل الاستقلال}, ص, 20.
[3]- مذكرة تخرج: صورة الثورة والوطن في شعر مفدي زكريا.
[3]- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدي زكريا, ص, 46.

تقديم بعض قصائده الثورية لهم لتلحينها وغنائها, فيقول عن لقائه بوردة الجزائرية التي قالت له:"يسعدني أن أخبرك أن قصيدك'أنا ثائر' قد تم تلحينه أو كاد, وقد لحن على شكل أوبرت شعرية, أما صلواتك لابنك سليمان 'الجندي الصغير' فقد لُحنت و غنيتها في إذاعة القاهرة بعد سرد رسالة الابن الثائر كما قدمت للأغنية, وكان لها صدى في مصر والبلاد العربية..."

بعد هذا النشاط المكثف طوال أربعة أشهر, قد لا يكون غريبًا أن تُعلق جريدة "الصباح" على ذلك بمايلي:

" مفدي زكريا سفير الجزائر بدون أوراق اعتمادٍ...وهكذا لاتخلوا أعمدة الصحافة سواء في دمشق أو القاهرة أو لبنان من شيء عن مفدى زكريا والجزائر, أو شيئًا من مفدى عن الجزائر, فأصبح ذلك سفيرًا بدون أوراق اعتماد, يخدم قضية بلاده, و يُبصر إخوانه في المشرق بما لا يعلمون عن الثورة الجزائرية وعروبة الجزائر."[1]

عاش الشاعر بعد الاستقلال بين تجارته في تونس والمغرب وقد أعلن عداءه للنظام في الجزائر قُبيل وفاته بأسابيع, حيث توفي في تونس بسكتة قلبية يوم الأربعاء 02 رمضان 1376, 17أوت1977, ودفن ببلده الأصلي بواد ميزاب يغطيه العلم الوطني الجزائري, الذي كتب الشاعر نشيده بدمه, قد آمنا مطمئنًا في الأرض التي قضى حياته وهو يهتف بها وينادي بعزتها وكرامتها.[2]

وقد أقيم له حفل تأبيني بتونس شاركت فيه شخصيات من رجال الحكومة و الحزب التونسيين والقائم بأعمال السفارة الجزائرية بتونس, وعضو من الديوان الملكي المغربي, وقد ألقى كلمة التأبين السيد الشاذلي القلي, وزير الشؤون الثقافية آنذاك كما أبنَ الشاعر صديقه الحبيب شيبوب بقصيدةٍ شعرية مؤثرة-رحمه الله-.[3]

---

[1]- جريدة الصباح التونسية: ع 2875، ص، 45.
[2]- مجلة آمال: نماذج من الشعر الجزائري المعاصر {شعر ما قبل الاستقلال }, ع 02.
[3]- نفس المرجع: ع 02 ، ص، 31.

المبحث الثاني
آثاره الأدبية والفكرية

آثاره الأدبية و الفكرية:

لقد رحل مفدي زكريا يوم 17 أوت 1977م تاركًا تراثًا ضخمًا قيد التحقيق والنشر, وما نشر من كتاباته لحد الآن ضئيلٌ جدًا, ولا يمثل إلا عُشر كتاباته, لأنه كان يكتب في كل مناسبة تصادفه, وتراثه الأدبي ليس كله شعرًا, بل هناك كتابات نثرية لا يُعرف عنها إلا العناوين, نتطرق إليها ثم نورد إنتاجه الشعري:

وفي مقابلة صحفية أدلى شخصيًا بهذه العناوين:[1]

1- تاريخ الصحافة الجزائرية.

2- تاريخ الفلكلور الجزائري.

3- أضواء على وادي ميزاب 'دراسة'.

4- نحو مجتمع أفضل.

5- سبعُ سنواتٍ في سجون فرنسا.

6- حوار المغرب العربي الكبير في معركة التحرير.

7- قاموس المغرب العربي 'اللهجات'.

8- العادات والتقاليد في المغرب الموحد.

9- الثورة الكبرى 'أوبرت'.

10- في العيد 'رواية'.

11- عوائق انبعاث القصة العربية.

12- مئة يومٍ ويومٍ في المشرق العربي.

13- الجزائر بين الماضي والحاضر.

14- مذكراتي.[2]

15- الصراع بين الشعر الأصيل و الدخيل.

---

[1]- محمد ناصر: شاعر الثورة في مراحل حياته, ع 93، ص، 176.

[2]- بولحيا الطاهر: تأملات في إلياذة الجزائر لمفدى زكريا, ص, 48.

16- انطلاقة.

17- من وحي الأطلس.

18- الخافق المعذب.[1]

أما إنجازه الشعري فتمثل فيما يلي:

1- ديوان اللهب المقدس:طبع ثلاث طبعات, الأولى سنة1961, بالمكتب التجاري بيروت والثانية ضمن منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر, سنة 1983م, قامت بها الشركة الوطنية للنشر و التوزيع بالجزائر.

2- تحت ظلال الزيتون:طبع سنة 1965بالمطبعة الرسمية بتونس.

3- إلياذة الجزائر: طبعت سنة 1972 ضمن منشورات وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية, وهذه الطبعة حَوت ستمائة بيت فقط, ثم نشرت كاملة في المجلد الأول من محاضرات الملتقى السادس للفكر الإسلامي سنة1972,[2]

وقد صدرت في نصفها الكامل مائة مقطوعة تضم ألف بيت وبيتا' 1001من الشعر كتبها الخطاط الأستاذ عبد المجيد غالب, وكتب تقديمها المرحوم الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم, الذي ساهم في الوقت نفسه مع الشاعر في عملية الشرح والتعليق لما يحتاج على ذلك في الإلياذة, وطبعت ترجمتها أيضًا إلى الفرنسية في الطبعة باللغة الفرنسية التي لا تكاد تقل في روعتها وجمالها عن الأصل.[3]

4- من وحي الأطلس: طبع بالمغرب الأقصى سنة 1976, بالإضافةإلى قصائد متفرقة في الجرائد والمجلات.

له شعر كثير غير ما نشره في دواوينه متفرق في الصحافة الجزائرية و التونسية والمغربية, وبقي أمر جمعها في دواوين حلما يراود الشاعر, ولم يستطع تحقيقه رغم

[1]- المرجع السابق: ص, 49.
[2]- يحي الشيخ صالح: المرجع السابق, ص, 51.
[3]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر, ص, 12.

إعلانه عن هذه الدواوين في أحاديثه و تراجمه الشخصية: أهازيج الزحف المقدس" أغاني الشعب الجزائري الثائر بلغة الشعب, "محاولات الطفولة" إنتاج الشاعر في صباه.[1]

[1]- نفس المصدر: ص, 3.

ومن أناشيده:

- النشيد الوطني الجزائري, نظم بسجن بربروس في الزنزانة69, بتاريخ 25 أفريل 1955م, ولحنه مفدي فوزي.
- نحن طلاب الجزائر.
- نشيد العلم كتبه بدمه وأهداه للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.
- نشيد الشهيد: نظم بسجن بربروس في الزنزانة رقم 65 يوم 29نوفمبر 1937, وفي 1956 أمرت جبهة التحرير الوطني الجزائرية إلى المحكوم عليهم أن يرددوه قبل الصعود للمقصلة.[1]
- نشيد الانطلاقة الأولى "فداء الجزائر".
- نشيد جيش التحرير الوطني.
- نشيد الاتحاد العام للعمال الجزائريين.
- نشيد المرأة الجزائرية.
- نشيد بربروس.
- نشيد مؤتمر المصير بتونس.
- نشيد اتحاد النساء التونسي.
- نشيد معركة بنزرت التاريخية.
- نشيد الجلاء عن المغرب.
- نشيد الجيش المغربي.[2]

هذه هي أهم الأعمال التي خلفها الرجل, وهي كما نلاحظ يغلب فيها النثر على الشعر ومع ذلك لازلنا لحد الآن لم نطلع على أي عمل من أعماله النثرية ولا ندري لماذا لا تحقق الأعمال وتظهر إلى الوجود و تحدث في عالم النثر نفس الضجة التي

[1]- بولحيا الطاهر: المرجع السابق, 49.
[2]- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى, ص, 02.

أحدثها شعره.[1]

[1]- بولحيا الطاهر: المرجع السابق, ص, 49.

المبحث الثالث

أغراض الشعر ومضامينه عند مفدي زكريا

أغراض الشعر ومضامينه عند مفدي زكريا:

تناول زكريا في شعره موضوعات أساسية كانت تخدم فكرته وتعالج واقعه, وتلبي طموحاته وما نذر نفسه له من فداء وطنه حتى تحقيق النصر والاستقلال. فكان موضوعه الأساس الوطن, وما حام حوله, وسعى للحفاظ عليه ورفع شأنه وتحقيق عزته وكرامته:

الوطن, الأمجاد, الحرية, الوحدة, الطبيعة, الأخلاق و القيم, محاربة الاستعمار, إنكار التفسخ الخلقي والانحلال.

ويمكن تحديد أهم أغراض الشعر عند زكريا في النقاط التالية:

- التغني بالتاريخ والبطولات. والأمجاد, وهو جانب الجلال.
- الإشادة بالوطن, وما يزخر به من جمال ساحر.
- السخرية بالمستعمر وتحدي بطشه وجبروته.
- التقريع والتشهير بالخونة والعملاء الذي يعينون المستعمر على بني جلدتهم.
- الإشادة بالقيم والأصالة و الدعوة إلى الاستمساك بها.
- التحذير من الانسلاخ و الانبهار بالوافد من العادات التي تخالف أصالتها و تنافيها.
- الدعوة إلى الوحدة الكبرى بكل معانيها ودوائرها, [1]على المستوى الوطني, وقد دفعه حب الوطن وذلك الإعجاب بالجزائر إلى أن يتغزل بها ويضرب صفحا عن التغزل بغيرها, ومن شعره في حبه للجزائر:

رَسولُ الهوى بَلِغ سَلامي إلى سلمى وعطا جَمًا ثَغْرُهَا البَاسِم الألمي.
وناجِ هواهَا علي في الغَيبِ رحمةً تَدارك هذا القلبُ أن ينتفضَ همًا.

[1]- الموقع الالكتروني: منتديات بوابة العرب.

وبت شكاة ن مشوف ميتم له كبد حوى تضيق به غما.[1]

وإذا انقلبت الموازين واهتزت القيم عند الأمم والشعوب بليل الاستدمار الفرنسي في الجزائر, فإن مفدى يسجل ذلك الأسلوب الذي سلكته فرنسا متعجبة:

أمن العدلِ صَاحبُ الدارِ يشقى ودَخيلٌ بها يعيشُ سعيدَا؟

ويُبيحُ المستعمرونَ حُمَاهَا ويظلُ ابنهَا طَّريدًا شَرِيدَا؟[2]

وينفض مفدي يديه من الحبر و الورق كأنه ليس بالشاعر الأديب, أنه يرى في دم الأحرار الحروف التي لا تمحى, والأصداء التي تخترق الصمم.[3]

حُقُوقنَا بدمِ الأحرارِ نكتُبها لا الحِبرُ أصبحَ يعنِينَا ولا الورقُ.[4]

وهدف الشاعر من وراء هذا إثارة الهمم, وهز النفوس, حتى يهب شعبه ثائرا في وجه العدو, ولما لم ينفع الكلام أمام القوة, لم يجد الصراخ أمام الوعد الكاذب, فإن الرشاش قد انطلق ليعطي قولا مفيدا من شعب ثائر, صمم أن لا يتوقف حتى الاستقلال.

ولعل شاعرنا كان له حظ في مبالغته هاته في صدق الواقع شيء ما دام يتحدث عن ثورة هزت المفاهيم الفكرية, وقلبت الأوضاع السياسية في العالم رأسا على عقب, وإذا كانت هذه الثورة في حقيقتها وفي أثرها لا ترتقي إلى مستوى ليلة القدر التي لا تضاهيها ليلة.

ويضل صدى ليلة نوفمبر في نفس الشاعر فكلما دارت الدورة, عز عليه أن يمر دون أن ينشد بها معتز, فقد أقام الشاعر مقارنة بين أول نوفمبر وأول ليلة نزل فيها القرآن الكريم, ودليله في عظمة ليلة القدر بالنسبة للإنسانية وأول نوفمبر بالنسبة للقضية الجزائرية.[5]

---

[1]- جريدة المغرب{الجزائر}, ع, 313.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, ص, 16.
[3]- صالح خرفي: الشعر الجزائري, سلسلة الدراسات الكبرى, ص, 226.
[4]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, ص, 28.
[5]- حواس بري: شعر مفدى زكريا دراسة وتقويم, ص, 68-78.

ومادام مفدي زكريا قد عاش الحياة السياسية, إبان الثورة التحريرية الكبرى, وتقلب في مناصب سياسية حساسة, فقد تكون بذلك موقفه الواضح من القضايا الأساسية وأول هذه القضايا السياسية ومفهومها, فالسياسة عند مفدى ليست هي التشدق في الكلام والتقعر فيه, والضرب على الموائد في المؤتمرات وغيرها, وإنما هي مشروع عمل تراه العين وتلمسه اليد, كما أن النظام ليس هو الطعن في القضايا المطروحة على مسرح الحياة السياسية, ومن ثم فالزعامة عنده لا تعرف بالخطب التي تلقى وبالكلمات التي تثير العواطف, وإنما الزعامة هي إصلاح وتشييد, وتبعا لذلك, فإنه يكون من باب تحصيل الحاصل وتقرير البديهي أن الجهاد ليس هو الجهد الذي يبذل في كتابة المطالب على الجدران.[1]

وما السِياسةُ ضَرْبٌ فَوقَ مائدةٍ إن السِياسَة إنشاءٌ وتَجديد
وما الزَعَامةُ أقوالٌ وشَقشَقةٌ إن الزعامةَ إصلاحٌ وتَشييد
وما الجهادُ جدارٌ أن تكتبهُ إن الجدارَ كبعضِ الناسِ جُلمودُ[2]

فقد استطاع مفدي أن يعرض بالسياسة الفرنسية التي تناءت عن الحق بقدر ما اقتربت من الزور والظلم و العدوان على الجزائر وثورتها المجيدة في مواضيع كثيرة من شعره, ونختار هذه المناسبة على سبيل المثال لا الحصر:

وأفْضَحُ مع الأيامِ جُمهُورِية كَشَف الزمانُ جُنونَها وخَيَالهَا[3]

إن الثورة في الشعر ليست موضوعا بقدر ما هي موقف يقفه الشاعر من مختلف القضايا وطابع خاص يطبع به شعره, وإن كانت تلك القضايا في مجملها قضايا وطنية, لكن الغرض الذي يعبر فيه الشاعر عن ثورته ليس دائما ما يسمى بغرض: "الشعر الوطني", بل تظهر النزعة الثورية حتى في أغراض أخرى بعيدة في شكلها عن الوطنية, إن أغلب شعر مفدي يندرج في إطار الشعر الوطني الصريح, لكنه

[1]- حواس بري: المرجع السابق, ص, 78-79.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, ص, 267.
[3]- حواس بري: المرجع السابق, ص, 158.

ليس الغرض الوحيد الذي يعبر فيه الشاعر عن ثورته, بل سخر لها حتى الأغراض الذاتية المحضة, فالغزل عنده كثيرا ما يمكن إدراجه في الغزل السياسي والذي يتغزل فيه الشاعر ويعبر عن حرقته ولوعته وكل ذلك ليس لحبيبته أو خليلته وإنما للوطن أو لقضية وطنية مثل الحرية وذلك بتصويرها امرأة ملكت على الشاعر لبه, فهام بها وأصبح لا يحلم إلا بأمرها:[1]

الحبُ أرقَني واليَأْسُ أضْنَانِي والبَينُ ضَاعفَ آلامِي وأحْزَانِي

والرُوحُ في حبِ ليلايَ استَحالَ إلى دمعٍ فأمطَرهُ شِعري ووِجْدَاني[2]

لكن ليلى هذه ليست سوى الجزائر.

وكذلك في قصيدة أخرى بعنوان"خفقة فؤاد" في حديث عن سلمى وهي ليست إلا الجزائر, والشكل الثاني فهو غزل حقيقي بالمرأة لكنه ليس غزلا خالصا لها, بل ملتحما بالوطنية فيه عاطفة حب للمرأة لكنها ممتزجة بعاطفة حب للوطن.

وإنصافا لجهد المرأة حكي مفدى على لسانها نشيد بنت الجزائر لتسجيل عملها البطولي وموقفها المشرف في الثورة.

أنا بنتُ الجَزائِر أنا بِنتُ العَرب

يومَ نَادَى المنادي ودعا للكِفَاح

قُمتُ أحَمِي بلادي وتَرَكْتُ المُزَاح[3]

هكذا صور مفدي المرأة وهي تؤدي دورها في الساحات الجهاد, وبالرغم من ذلك يظل للمرأة دور آخر أعظم بوصفها مصنع الرجال الذين في حضنها تربية تؤهلهم للدفاع عن وطنهم, ولمفدي قصائد كثيرة في غرض الرثاء لكنها هي الأخرى من صميم الشعر الوطني الثوري. [4] فإن مفدي لم يعرف البكاء إلى نفسه سبيلا إلا على الجزائر التي ظلت ردحا من الزمن تتلظى سعير الحرب, ولذلك كانت الجزائر

[1]- يحي الشيخ صالح: المرجع السابق, ص, 64-69.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, 92.
[3]- نفس المرجع: ص، 93-94.
[4]- حواس بري: المصدر السابق, ص, 38.

بالنسبة إليه هي الأمل والهدف والرجاء.

فمفدي ينظر إلى من يرثيهم على أنهم خالدون لم يموتوا, ونتيجة لذلك فهو يطلب منهم القيام بمهام الثورة في العالم الآخر,[1] ونرى ذلك في مرثيته التي نظمها في أول شهيد يدشن المقصلة, وهو "أحمد زبانة", الذي أعدم بالمقصلة, وفي القصيدة نفسها "الذبيح الصاعد", يقرر الشاعر تجاوز الإنسان المكافح الصامد الموت العادي وهكذا يرتفع إلى مرتبة "المسيح", ويلفت من أيدي الطغيان, ويسموا عن المادة ويصبح روحا خالدة.[2]

قَام يختالُ كالمسيحِ وئيدًا يَتَهَادَى نشْوَان يَتْلُوا النَشيدَا
بَاسِمَ الثَّغْرِ كالملائكِ أوكال طفلِ يستقبلُ الصَبَاح الجَديدَا
شَامخًا أنفهُ جلالًا وتِيهَا رَافِعًا رأسهُ يُنَاجِي الخُلودَا[3]

كذلك في رثائهم لأبي الثورة الجزائرية الأمير عبد القادر الذي دوخ فرنسا في جهاده ويعز على مفدي زكريا أن تمر ذكرى وفاته دون أن ينظم شعرا يعرف الأجيال من خلاله بالأمير عبد القادر[4]

إذا ذكرَ التَاريخَ أبطَال أمةٍ يَخِرُ لذكراكَ الزَمَانُ ويَسْجُد
وإن تَذْكر الدُنْيَا زَعِيمًا مُخلدًا فإنكَ في الدُنيَا الزَعِيم المُخَلِد
أثرتَ عَلى الظَالمِين حربًا لم تَزُل عَليْهم تَكُ كالجَحيمِ وتُوقَد[5]

فكما نلاحظ لا نجد للبكاء أثرا في الرثاء وإنما إلى جانب التأبين يذكر به الشاعر من حوله وبأثره في الثورة الجزائرية وهي في أمس الحاجة إلى أمثال الأمير عبد القادر, استطاع مفدي أن يرثي الأمير عبد القادر ولكن رثاء يختلف عن الرثاء الذي عهدناه عند غيره من الشعراء, لم نقف فيه على البكاء, وإنما لمسنا من خلاله دور

[1]- يحي الشيخ صالح: المرجع السابق, ص, 89.
[2]- حواس بري: المرجع السابق, ص, 89.
[3]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, ص, 09.
[4]- حواس بري: المرجع السابق, ص, 90-91.
[5]- مفدي زكريا: المصدر السابق, ص 173.

الأمير عبد القادر ومدى تأثره في الثورة الجزائرية.[1]

وهكذا عبر مفدي في غرض الرثاء عن الموقف الوطني الثوري, وأصبح ذلك الرثاء شيئا آخر لا يحمل من الرثاء إلا اسمه.

والمدح عند مفدي نوعان, مدح عادي قاله بدافع الصداقة والتقدير وهو لا يختلف كثيرا عن شعر المدح المعروف بصفته غرضا من أغراض الشعر العربي منذ القديم ممثلا في مدائحه للرئيس التونسي الحبيب بورقيبة, وللملك المغربي وهو ليس من شعر الثورة, وإن كان يدخل في إطار شعر الصبغة الوطنية الواسعة التي يصبغها الشاعر على هذا النوع من المدح, والتي تشق الحدود لتحلق في سماء الأمة العربية, ولمفدي رأي في شعره هذا, فهو يرى أنه ليس من قبيل المدح التقليدي.[2]

وقَالُوا مَدَّحتُ المَالِكينَ أجَبْتُهم هل المدحُ في غَيْرِ المَناجِيدِ مِنْ شَأنِي؟

وإذا مَا اسْتَقَامَ المَالِكُونَ مَدَحتَهُم وصُغتُ مَديحِي مَنْ قَواعِدِ إيمَانِي[3]

أما النوع الثاني من المدح, فهو يطغى عليه طابع ثوري صميم, لأن الشاعر فيه لا يولي اهتمام إلا للقضية الوطنية فهو مقياسه الوحيد, ولأن الشاعر في جزء كبير منه لا يعبر عن عاطفته الخاصة ولا باسمه وإنما باسم الجزائر وثورتها واستخدام المصطلحات بدقة فلا نسميه مدحا بل تمجيد لأنه لا يتناول الممدوح لشخصه وإنما لجهاده وللوطنية فيه, ولعل الشاعر نفسه يفرق بين المدح والتمجيد, ولا يسمى هذا النوع الأخير مدحًا. [4] فمذ إنشاده قصيدة في تمجيد توفيق المدني يقول:

أيْهَ تَوفِيقُ فيكَ أخْلَصتُ شعرًا قُدُسِيًا كالوحي ظَنوهُ سِحرًا[5]

وهكذا يتضح أن المدح عنده في مرحلة الثورة كان يشبه إلى حد بعيد مدحه قبل

[1]- حواس بري: المرجع السابق, 91-94.
[2]- يحي الشيخ صالح: المرجع السابق, 71-72.
[3]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, ص 322.
[4]- يحي الشيخ صالح: المرجع السابق, ص, 73-78.
[5]- مفدي زكريا: اللهب المقدس, ص, 280.

الثورة فهو تمجيد للوطنيين وتخليد لأعمالهم وهو النوع الذي يصدق عليه أنه "الذكر الجميل" كما يسميه الشاعر.

وفي مجال الحكمة في شعر مفدي زكريا أبيات متفرقة وقصائد مختلفة وإنتاجه ينحصر في مجال الثورة, وتعبر عن فلسفة الشاعر, ووجهات نظره في هذا الميدان, تلك الفلسفة التي اعتنقها منذ شبابه وعمقها طول ممارسته للسياسة, والاحتكاك بالوطنين خاصة السجون والمعتقلات, وفي أثناء الثورة المسلحة يرى أن أي حركة تريد النجاح لابد لها من أن تقوم على ركيزتين, الحق و القوة, فالحق وحده لا يتحقق بدون قوة تدعمه و تفرضه بالقوة, والتي لا تستند على الحق {بل على الظلم} لا تأتي بنتيجة:[1]

والحقُ والرَشَاشُ إن نَطَقَا معًا عُنتْ الوُجُوهُ وخَرْت الأصْنَام

أو إني رَأيتُ الكَونَ يَسْجُدُ خَاشِعًا للحقِ والرشاشِ إن نَطَقا معا[2]

ومن الظواهر التي نجدها أيضا في شعر مفدي ما يسمى "الشعر ألمناسباتي" نظم القصائد في مناسبات وطنية وقومية ودينية, وقصائد في مدح السلاطين ... وأخرى في تصوير حال الأمة العربية التي تعاني الاضطراب والانكسار والبؤس في زمن أفول نجمها. وقد حاولت هذه القصائد نقل آلام العرب وآمالهم في لبنان و غيرها من أقطار الوطن العربي الكبير. والسمة البارزة في شعر زكريا هي الصدق الشعري وأثر المعاناة الشعورية فيه, السجون والتعذيب, محنة الشعب الجزائري في الاحتلال.[3]

[1]- يحي الشيخ صالح: المرجع السابق, ص, 77-78.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس,.44-45
[3]- انظر مثلا قصائده: قالوا نريد- على عهد العروبة سوف نبقى-لا تعجبوا..الخ.

ومن خصائص شعره:

- أنه شعر أصيل حتى النخاع.
- شعر صادق لأنه نابع من تجربة شعورية ومعاناة قاسية.
- مستمد من التراث الإسلامي مشبع بقيمه ومثله متأثر بعظمائه وتاريخه.
- رائع في رسم الصور الشعرية الحية المؤثرة.
- بارع في الاقتباس والتضمين.سواء للمفردات أم الأحداث, من القرآن أم من التاريخ.[1]

[1]- الموقع الإلكتروني: منتديات بوابة العرب

الفصل الثاني
الوحدة الوطنية في شعر مفدي زكريا

المبحث الأول
الوحدة الوطنية في ديوان اللهب المقدس

المبحث الثاني
الوحدة الوطنية في ملحمة إلياذة الجزائر

المبحث الثالث
قصائد في ظلمات السجون

الوحدة الوطنية في شعر مفدي زكريا:

إن الإصرار الإنتمائي يدعوا إلى تصاعد المقومات الأساسية للوطن وتبرز الملامح المميزة له التاريخ بذكرياته الماثلة, الدين بعقيدته وإيمانه, القومية بأصالتها وعراقتها اللغة بتراثها وحضارتها. ويتغنى الشاعر بعروبة الثورة وعروبة الجزائر, كما لم يتغن بها من قبل, وتنطلق القومية انطلاقة شعرية في عنف الاحتباس الخانق لها طيلة الاحتلال الفرنسي, وتطفوا لفظة العروبة على كل بيت في كل قصيدة, وكان الإصرار من الطرف الآخر على أغنية الجزائر قطعة من فرنسا يزيد من جموح هذه اللفظة وإلحاحها على البيوت والقوافي، وبالرغم من أن الثورة كانت تبرهن على مطلع شمي طين أصيلة في الجزائر غير أن هذه الطينة المفرنسة التي دأب المستعمر على تأكيدها، فإن هذه الثورة لم تمنع الأفكار من التساؤل الحائر على مصير العروبة في ثقافتها، كان يدركها في الوقت نفسه شعور من الانشقاق، وربما الهلع على العنصر القومي فيها، وخاصة إذا احتكمت إلى الظواهر التي تعبر في حد ذاتها من رواسب الاستعمار.[1] ويضل الحب هو الدافع الذي يرتمي الشعراء من أجله في براكين الثورات شاهدين عليها بشعرهم، ومشاركين فيها بأنفسهم حتى تحفل بهم الزنازن, وتملئ بهم السجون. وشاعرنا واحد من هؤلاء، فالحديث عن رحلة الشاعر مع الثورة الجزائرية، نشرع في الحديث عن وطنيته، وإن الدارس لشعر مفدى يلمس في إنتاجه المبكر حب للجزائر حارقا، وحنينا ووجهها الذي مازج دمه ودخل شغاف قلبه، فهو يعشق مواطن الجمال في وطنه, فيتغنى به جزءًا جزءا، وموطنًا موطنا، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ولم نر من الشعر من يدانيه في

[1]- صالح بن خرفي: الشعر الجزائري, ص, 258-259.

هذه الخصيصة، فكان شعاره وحدة الوطن والهدف.[1]

[1]- جريدة المغرب{الجزائر}, ع, 313.

المبحث الأول

الوحدة الوطنية في ديوان اللهب المقدس

الوحدة الوطنية في ديوان"اللهب المقدس"

يقف مفدي زكريا موقع الصدارة من شعراء الجزائر من حيث وفرة إنتاجه وجَودَته، وعلى الرغم من جهوده في المجال الحزبي، حيث انخرط في أكثر من حزب وفي ساحة الصحافة تحريرًا وإدارة، فقد وَاصَلَ دون انقطاع مسيرته الشعرية طوالَ حياته, وفي مختلف العهود, فَنَظمهُ قبل الثورة للتحريض عليها, وفي أثنائه, وبعد الاستقلال، وتعددت المواطن التي وُلدت فيها قصائده حتى شملت بلاد المغرب العربي الثلاثة: الجزائر والمغرب وتونس. وكانت حصيلة هذا العطاء الفني الغزير و المتنوع في قالبه وإيقاعه ومحتواه ثلاثة دواوين هي: "اللهب المقدس" سنة 1961, "تحت ظلال الزيتون"سنة 1965، و"من وحي الأطلس"الذي نُشِرَ قبل وفاة الشاعر بعامٍ، أي في سنة 1976، وملحمة شعرية هي "إلياذة الجزائر"سنة 1972.[1]

ويعد ديوان "اللهب المقدس" أهم وأشهر دواوينه, باعتباره ديوان ثورة التحرير الجزائرية، فمن وحيها صاغ مفدي زكريا الأناشيد والقصائد التي تضمنها. وهو يحظى بمكانة خاصة في الشعر الجزائري الحديث، مما جعله موضعًا لفخار المثقفين الجزائريين عامة، والأدباء و الباحثين والنقاد خاصة، فأقبلوا عليه حفظًا ودراسة، كما ترجمت بعض قصائده إلى اللغة الفرنسية.[2]

ويخص مفدي زكريا ديوانه هذا بمشاعر الاعتزاز والإيثار، لأنه نبض قلبه كثائر، وآية عبقريته كشاعر، وقد وصفه-في حديث صحفي- بأنه واقع، وتاريخ حرب، وعصارة قلب شاعر عاش أحداث بلاده في السجون والمعتقلات، وشهد رؤوس الفدائيين تحصد بالمقصلة في ساحة سجن بربروس الرهيب. وافتتح الديوان

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 37.
[2]- نفس المرجع: ص 37.

بكلمة الإهداء الآتية، والتي نتبين منها نبوغه في الكتابة النثري أيضا، كما نتبين بجلاء نزعته الثورية وقوة عاطفته الوطنية:

"إلى الدقيقة الواحدة من فاتح نوفمبر1954.

إلى أول إصبع جزائرية حركها الأزل، وضغط بها القدر الرابض على زناد البعث لتطلق القصيدة المسحورة الأولى، فتسعر'اللهب المقدس' في دروب بلادي الحالمة، وأحراشها السَكرَى، ورمالها العطشى، وجبالها الغضبى..

أهدي ذَوبَ كبدٍ تحترق في أتُون 'اللهب المقدس'".[1]

وتلي هذا الإهداء كلمة أخرى للشاعر يقول فيها: "لم أُعنَ في 'اللهب المقدس' بالفن والصناعة عنايتي بالتعبئة الثورية .. وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة..والشعر الحق – في نظري- إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة." ثم يندد بالشعراء الذين "ربما لا يجدون في الديوان ما يشبع غرائزهم المشبوبة في جحيم النهود والبراعم والفساتين". ويشيد بالشعراء الذين "سيجدون فيه صلة رحم وثقى بعز أمجادهم، وتجاوبا صادقا مع مشاعر العروبة، كما سيجد فيه رواد التجديد الرصين ما يدعم عقيدتهم في أن عمود الشعر العربي -غير المغموز النسب- يبقى شامخا أمام أي تجديد في التعبير والتفكير في حدود الشخصية الذاتية للغة التي صمدت في وجه الزمن".[2]

وبعد ذلك الإهداء وتلك الكلمة نص رسالة كان قد أرسل بها سليمان صلاح الدين إلى أبيه الشاعر من ساحة الشرف في أول نوفمبر 1960، وهي رسالة بليغة فياضة

[1]- نفس المرجع: ص, 38.
[2]- نفس المرجع: ص, 38.

بأنبل المعاني، إذ تعبر عن واجب الكفاح في سبيل الوطن وعن البر بالوالدين.[1]

ويضم ديوان "اللهب المقدس" أربعا وخمسين {54} قصيدة، منها ست {6}قصائد بعنوان: من أعماق بربروس، وعشرة {10} أناشيد بعنوان: تسابيح الخلود وتسع وعشرون {29} قصيدة بعنوان: نار ونور، وثلاث {3}قصائد بعنوان: تنبؤات شاعر، وست{6} قصائد بعنوان: فلسطين تحت الصليب. وتعد القصيدة الأولى وهي:{الذبيح الصاعد}رائعة الديوان ودُرتهُ، وإن كانت معظم القصائد الأخرى لآلئ من الشعر. ويقول مفدى:إنه نَظَمَ هذه القصيدة بسجن بربروس في الهزيع الثاني من الليل أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد نُفِذَ فيه الحكم بالمقصلة، وهو أحمد زبانا، وذلك ليلة 18يوليه 1955.[2]

وتستحق هذه القصيدة أن تدرج في عداد مأثورات الشعر العربي الحديث، لا في الجزائر فقط، بل في البلدان العربية جميعا، لجلال موضوعها – وهو رثاء شهيد – و سمو معانيها، وجمال صياغتها، ولقوة الشعور الذي أوحى بها، وجمعها بين الأصالة والمعاصرة في انسجام وتوافق، فالألفاظ تتسم بالسهولة، والتراكيب جزلة، والعبارات محكمة النسيج، وقد وفق الشاعر في اختيار وزن ذي غنائية رائعة، وهو وزن "الخفيف"وكأنه يزف الشهيد إلى دار الخلود، والقافية رقراقة كانسياب الجدول، وإن كانت تشف عن أسى دفين، أو قافية جياشة, عالية النغم، وذلك حسب المعنى الذي يريد الشاعر توصيله إلينا، والإحساس الذي ينم عنه هذا المعنى، فهو حينا يعبر عن الجمال الروحي للشهيد، ويصور حينا آخر ثورته على السفاحين الذين ارتكبوا أفدح الجرائم، وهي قتل المدافعين عن حق وطنهم في الحرية والاستقلال، وهو حق جاءت

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 39.
[2]- نفس المرجع: ص ، 39.

به الشرائع السماوية، وأقرته المعاهدات والمواثيق الدولية، وفي مقدمتها ميثاق الأمم المتحدة عام 1945، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام1948.[1]

وتذكرنا هذه القصيدة بمرثيات الشهداء ذات المستوى الشعري الرفيع في الأدبين: العربي والعالمي، ومنها قصيدة أبى الحسن الأنباري التي يرثى فيها ثائرا من أحفاد الحسين أبى الشهداء كان قد خرج على بني أمية في عهد خلافتهم، فقتلوه وصلبوه تنكيلا بآل البيت المطالبين بحقهم في الخلافة، وعِبرةً لغيرهم. وتتفق قصيدة مفدى مع قصيدة الأنباري في الرؤية الفنية، إذ تخلع على المرثي الذي قتلته السلطة المستبدة صورة الإنسان العظيم الذي يستشهد دفاعا عن وطنه أو عقيدته، وهي صورة تتسم بالبطولة والقداسة معا. فالشاعر أبو الحسن يبدأ مرثيته بقوله:

عُلوٌ في الحياةِ وفي الممات لَحَقٌ أنتَ إحدَى المعجزاتِ

ويعني ذلك – فيما يتصوره الشاعر- أن وضع جُثمان الشهيد في مكان عالٍ مثل حائط أو شجرة لا يخفِض من قدره، بل يزيده رفعة ويعلى من منزلته، وذلك على خلاف ما أراده قاتلوه من تحقيره في نظر العابرين.[2]

ويدل هذا التصوير على ما يقصد إليه الشاعر من نفى العار عن الشهيد وإلحاقه بمن قتله. ومطلع قصيدة مفدي زكريا قريب من هذه الصورة، وهو قوله:

قام يختالُ كالمسيح وَئِيدًا يتهادى نشوان يتلُو النشِيدَا[3]

فالمعني أن أحمد زبانا شهيد ثورة التحرير قد سار رابط الجأش إلى المقصلة، ثم صعد على درجها العالي، وكأنه المسيح إذ رفعهُ الله إلى السماء، وكان اليهود قد حكموا عليه بالقتل و الصلب، ولذلك وصَفَ مفدي هذا البطل بالذبيح الصاعد، وجعل

[1]- حسن فتح الباب: مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 40.
[2]- نفس المرجع: ص، 40.
[3]- نفس المرجع: ص, 41.

هذا الوصف عنوانا لقصيدته، ثم وصفه في البيت التالي بالملاك والطفل، لأن من صفات المناضل الثائر البراءة و الصدق، وصفاء النفس من الأكدار و الخطايا التي تتمثل في حب النفس، والامتناع عن التضحية في سبيل الوطن أو الإنسانية.[1]

وعَودًا على بدءٍ شبه الشاعر البطل وهو على منصة الإعدام العالية بالروح التي تسمو إلى السماء في ليلة القدر، وبالمؤذن الذي يصعد إلى سارية المسجد ليدعو إلى إقامة الصلاة. ومثلها عقد مقارنة بينه وبين المسيح في السمو إلى السماء، قارنه أيضا بالنبي موسى الذي كلم الله، فقال إن المجد قد دعاه فاعتلى حبال المقصلة، وامتطى مذبح البطولة و الفداء، وطار به جبريل عليه السلام إلى جنات عدنٍ التي وعد الله بها المتقين.[2]

ويمضي الشاعر في وصف الشهيد وهو على حافة الموت، فيقول:"إنه أطلق صرخة دوت في الآفاق وأصممت سمع العدو، إذ هتف: {الله أكبر ولتحي الجزائر حرة}". ثم يصور مفدي زكريا المعارك التي خاضها الثوار المؤمنون بربهم و الأوفياء لبلادهم، في مواجهة السفاحين الطغاة الغاصبين. ويبلغ من قوة التصوير أن القارئ يشعر كأنه يشاهد تلك المعارك التي اشترك فيها الشباب والكهول من الخيرة المجاهدين، ودارت في قمم الجبال الوعرة وسفوحها.[3]

ويشيد شاعر الثورة بالصبايا الجزائريات اللاتي انضممن إلى جيش التحرير، و قمن بأعمال فدائية، مثل "جميلة بوحريد, وجميلة بوعزة, وحسيبة " أو قُمنَ بإسعاف المصابين وتضميد جراحهم.[4]

---

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 41.
[2]- نفس المرجع: ص, 41.
[3]- نفس المرجع: ص، 41.
[4]- نفس المرجع: ص، 42.

ويصب مفدي زكريا جامَ غضبه على دولة الاستعمار التي لطخت جبين شعبها و تاريخه ووجه الإنسانية بما ارتكبته من جرائم وحشية تَعِفُ عنها الوحوش الضارية، من تقتيل وترويع للآمنين، وسجنٍ للأبرياء الذين لا ذنب لهم إلا أنهم ثاروا لتحرير بلادهم، ومن تجويع للشعب بعد أن نَهَبَت خيراته واستحلت حُرماته. ويتضرع إلى السماء كي تنتقم من البغاة وتنتصر لأصحاب القضية العادلة، ويصيح بالأرض أَن ثورِي مع المجاهدين و شتتي شمل القوم الظالمين.[1]

وهدف الشاعر من وراء هذا إثارة الهمم وهز النفوس حتى يهب شعبه ثائرا في وجه العدو، ثم يلتفت الشاعر إلى فرنسا التي ظلت تخادع وتماري بالوعود الكاذبة لتفويت الفرصة بالرغم من أن الشعب كان يرفض ذلك:[2]

يَا فَرنسَا كَفَى خِداعًا فإننا يَا فَرنسَا قَد مَللنَا الوُعُودَا

صَرَخَ الشَعبُ مُنذِرًا فَتصَا ممت وأبدَيت جَفوَةً وصُدُودَا[3]

ولما لم ينفع الكلام أمام القوة، ولم يجد الصراخ أمام الوعد الكاذب، فإن الرشاش قد انطلق ليعطي قولا مفيدا من شعب ثائر صمم أن لا يتوقف حتى الاستقلال:

سَكَتَ النَاطِقُونَ وانطَلَقَ الرَشَا شُ يَلقِي إليكَ قَولًا مُفِيدَا

نَحنُ ثُرنَا فلاتِ حِينَ رُجوعِ أو نَنَال استقلالنا المَنشُودَا

وفي سبيل هذا الاستقلال لحق الشعب العذاب الأكبر، ومع ذلك لم يردد إلا بسالة، وكان كلما ضاعفت فرنسا من عذابها زاد الآخر من تحيه لها، بتقديم الضحايا لتغدوا وقودا لنار الحرب:

[1]- نفس المرجع: ص، 42.
[2]- حواس بري: المرجع السابق، ص،68.
[3]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 17.

يا فَرَنسَا أمطِرِي حَديدًا ونَارًا واملَئِي الأرضَ والسَمَاء جُنُودَا

واضرمِيها عَرضَ البلاد شعا عيل فتَغدُوا لما الضعاف وَقُودَا[1]

وفي سبيل الوطن المسلوب والعقيدة المحاربة ذهب الشعب الجزائري يسبح على دمه يريد الوصول إلى حيث تعسكر سفينة السلام، وتشرق شمس الحرية والسيادة الوطنية، وإذا اعتاد النار أن يتربعوا بأموالهم فإن الشعب الجزائري- هاهنا- كان يتسابق على التبرع بالأرواح:

وَالشَعبُ يَسبحُ للعُليا عَلى دَمهِ وَللتَبَرُعِ بالأروَاحِ يَستَبقُ[2]

ويهزأ بالوعود التي يقطعها الجلادون لضحاياهم، ويرى أن الحق لا ينال إلا بالجهاد الدامي، لا بالمعاهدات والاتفاقيات:

حُقوقنَا بدَمِ الأحرَارِ نَكتُبُهَا لا الحِبرُ أصبَحَ يَعنِينَا وَلَا الوَرَقُ

ونصر السماء لا يأتي إلا للشجعان، والعز لا يتحقق إلا بحركة شعورية ثائرة مغامرة:

لَا أبتَغِي العِزَ إلا في مُغامَرَةٍ إن السَمواتِ للمِقدَامِ تَنفَتِقُ[3]

ومن الدروس الهامة في التضحية والفداء والإقدام وعدم الخضوع لوسواس وضع السلاح، أو ما يسمى السلام الخادع، وإنه لدرس هام لكل المقاومين والمدافعين عن عزتهم وحرية بلدانهم:

وَضعُ السِلاحِ أحاديثَ مُلفَقَةٌ خُرَافةٌ صَاغَهَا للكيدِ مُختَلَقُ[4]

ويرفض تطميع فرنسا بالمال والمتاع، والتلويح بالثوب والرغيف، لتجعل أهداف

[1]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، 27.
[2]- مذكرة التخرج: صورة الثورة و الوطن في شعر مفدي زكريا، ص، 57-58.
[3]- محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، ص، 371.
[4]- نفس المرجع: ص، 371.

الجزائريين هابطة تافهة:[1]

لا تُشغِلينا بأثوابٍ وأرغِفَةٍ أهدَافُنَا المجدُ ليس الخُبزُ والخِرَقُ

فَكم قَطَعتِ عُهُودًا أصبَحَت حُلمًا حتى غَّدونَا بغير الحَربِ لا نَثِقُ[2]

فيبين الشاعر أن ما أخذ بالقوة لا ترجعه إلا القوة وأن الحديد بالحديد يفلح، وحينئذ يتنبه من التعامي عن الحق الذي تطلبه الأيدي المخضبة بالدماء:

وحَربٌ للكَرَامَةِ في بِلادٍ مَضَت تَفتكُ عِزتَها غِلابَا

وأوفَدَت الرَصَاصَ يَنُوبُ عَنهَا يُنَاقشُ غَاصِبَ الحَقِ الحِسابَا

فأيقَظَت القَنابِلَ من تَعَامِي وَأسدَلَ فوق نَاظِرِه نِقَابَا[3]

وإذا كانت فرنسا تتفنن في وسائل التعذيب لتحد من عزيمة الشعب الجزائري وهو يدافع عن حقه، لم يقف وقفة المتفرج، وإنما كان يبدع في أساليب التحدي، فتارة كالطيور الكواسر، وأخرى كالصقور الجوارح، وثالثة يصول في ساحة الشرف كالأسود الغضاب، ولم يثنه في سبيل الهدف المنشود جميع الوسائل التي كانت تستعملها فرنسا معه من سجن أو شنق، بل اتخذ الأرواح مهرا للحرية الغالية:[4]

وَثَبنَا كالكواسرِ واتخَذنَا إلى استِقلالِنَا الأروَاحَ طَرقَا

فلا نَخشَى العَذابَ ولا نُبالِي إذا وَجَبَ الفِدا سِجنًا وشَنقَا

نَزلنَا مِن مَعاقِلنَا صُقورًا وصَلنَا في الوَغى أسُدًا غضابَا[5]

[1]- نفس المرجع: ص، 371.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 28.
[3]- نفس المصدر: ص، 28.
[4]- حواس بري: المرجع السابق، ص، 72.
[5]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 41.

المبحث الثاني

الوحدة الوطنية في ملحمة إلياذة الجزائر

الوحدة الوطنية في"إلياذة الجزائر":

من دوافع نظمِ شاعرنا لهذه لملحمة رغبته في إثبات موهبته و مقدرته لإدراجه في سلك المبدعين الكبار، وإفساح مكان له بين المبرزين منهم، مثل أمير الشعراء أحمد شوقي الذي كتب قصيدة طويلة في تاريخ مصر، "كبار الحوادث في وادي النيل"، ومثل أحمد محرم الذي كتب 'الإلياذة الإسلامية' على غرار إلياذة هوميروس الشاعر الإغريقي. ولعل مفدي كان يتطلع إلى مباراة هذين الشاعرين المصريين الكبيرين، إذ كان الإنتاج الأدبي في المشرق العربي يصل إلي المغرب عن طريق الصحافة.[1]

أما المناسبة التاريخية التي حدت بالشاعر إلى التعجيل بتأليف "إلياذة الجزائر" كي تظهر فيها، فقد حدثنا عنها المؤرخ الجزائري الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم قائلا:[2] في مقدمة الطبعة الأولى

"في آخر الملتقي الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي في وهران 1391ه-1971م أعلنا أن الملتقي السادس سينعقد بعاصمة الجزائر بمناسبة العيد العاشر لاسترجاع استقلالنا والذكرى الألفية لتأسيسها مع المدية وملیانة على يدي بلكين بن زيري. ووفاء بوعدنا، ركزنا جدول أعمال هذا الملتقي على التاريخ، لمراجعته، وكتابته من جديد، وتصفيته من جميع ما علق به عن رؤية وسبق إصرار من شوائب وتزييفات، لمعرفة ماضينا، والاستفادة من تجاربه في بناء حاضرنا ومستقبلنا، في الجزائر والمغرب الكبير، والعلم الإسلامي الأوسع.[3]

ولهدا طلبنا من المناضل الكبير، الشاعر الملهم، شاعر الكفاح الثوري السياسي،

---

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 55.
[2]- نفس المرجع: ص، 55.
[3]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 09.

وشاعر الكفاح الثوري المسلح، الأستاذ مفدي زكريا، صاحب الأناشيد الوطنية: "من جبالنا طلع صوت الأحرار" سنة 1932م، و"فداء الجزائر روحي ومالي" سنة 1936م, و"قسما" سنة 1955م، و"اعصفي يا رياح"، ونشيد جيش التحرير الوطني ونشيد العمال، ونشيد الطلبة، واللهب المقدس...- وبعضها وضعها في سجن السركاجي- أقول طلبنا منه أن يضع لنا نشيدا جديدا يجمع هذه الأناشيد كلها، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم، مُركزا على مقاومتها لمختلف الاحتلالات الأجنبية، وعلى العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة، وحاضرنا ومستقبلنا في كفاحنا لاستعادة جميع ثرواتها، ومقومات شخصيتنا وحصانتنا، وبناء مجد جديد لأمتنا[1]

ولقد لبى الشاعر النداء وتحمس لفكرته، فعكف على نظم الإلياذة حتى بلغت ستمائة وعشرة من الأبيات، وقد أنشدها مفدي في افتتاح الملتقي السادس المشار إليه يوم 24 يوليه 1972م أمام حشد كبير، منهم الرئيس هواري بومدين. وانفض الحفل، وترددت بعده أصداء الإنشاد. ثم واصلت الإلياذة سيرتها حتى بلغت ألف بيتٍ وبيتاً، على غرار ألف ليلة وليلة، مع الفارق بينهما قالبا ومحتوى، فليس ثمة ما يجمع بينهما إلا العدد. ومما يجدر بالذكر أنها تُرجمت في حينها إلى اللغة الفرنسية بقلم الأستاذ طاهر بوشوشى، ونشرت الترجمة وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، كما نُشِرَ الأصل.[2]

وسميناها: إلياذة الجزائر، وإن كانت تمتاز عن إلياذة هوميروس بالفارق العملاق: فبينما هذه الأخيرة، أي الإلياذة اليونانية، لا تروي إلا أساطير، نجد الإلياذة

[1]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 09.
[2]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 56.

الجزائرية قد خلدت أمجادا حقيقية، وسطرت تاريخ وقائع وأحداث هي من روائع الدهر، لا من خلق الجن، ولا من اصطناع شاعر، ولكن من صنع الإنسان الجزائري في الميدان !

وقد قسمها مفدي إلى جزأين، قسم الجمال، أي الجمال الطبيعي للبلاد، وقسم الجلال أي المجد التاريخي، وإن تداخل القسمان أحيانا.[1]

والإلياذة أحسن سجل لتاريخ الجزائر حتى اليوم، أي أحسن كتاب فيه، وعنه، وله، وحتى إذا ما كتب هذا التاريخ يوما بصفة كاملةٍ شاملة، فستبقي إلياذة الجزائر أروع تاريخ للجزائر، وأكثره وقعا في النفوس، وأسهله على الحفظ، والتذكر، و الاستشهاد والاحتجاج!.[2]

ويستهل مفدي زكريا ملحمته بالمقطع الآتى:

جزائرُ يا مطلعَ المُعجِزَاتْ ويا حُجَة الله في الكائِنَاتْ
ويا بَسمةَ الرَبِ في أرضِهِ ويا وجهَهُ الضاحِكَ القَسمَاتْ
ويا لَوحَةً في سِجلِ الخُلودِ تموج بها الصورُ الحَالِماتْ
ويا قِصَةً بثَّ فيها الوجُود مَعَانِي السُّمُو برَوع الحياة
ويا صفحةً خَطَّ فيها البقَا بنَارٍ ونورٍ جِهادَ الأُبَاة
ويا لَلْبطولات تغزو الدُّنَا وتلهِمُها القِيَم الخالِداتْ
وأسطورةً رَدَّدتَها القُرُونُ فَهَاجت بأعماقِنا الذِّكْرَياتْ
ويا تُربةً تَاه فيها الجَلالُ فتاهت بها القِيَم الشَّامخاتْ
وألْقَي النهايَة فيها الجَمال فهِمْنا بأسرارِها الفاتناتْ

[1]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 12.
[2]- نفس المصدر: ص، 13.

وأهْوَى على قدمَيْها الزَّمانُ فأهوى على قَدَمَيْها الطُّغَاة

شَغَلْنَا الوَرى وملأنا الدُّنَا

بشِعر نُرتِّله كالصَّلاة

تسابيحهُ من حنايا الجزائرْ [1]

ويدل هذا الاستهلال الذي يتكون من عشرة أبيات نظمت على نسق الشعر التقليدي ذي الشطرين والقافية الواحدة، يليها ثلاث شطرات على نفس الوزن، وهو المتقارب، ولكن كلا منها مستقل بقافيته، وهذه الشطرات تسمى اللازمة، لأنها تتكرر في نهاية كل مقاطع الإلياذة. وقد التزم مفدي في هذه المقاطع جميعا برغم من طول القصيدة بالوزن المذكور، مع تنويع القافية من مقطع إلى آخر. أما من حيث الفن الشعري، فإن المقطع الأول الذي أوردناه يدل على تدفق الشاعر وتوهجه في تعبير عن عشقه لوطنه، وكأنه ينهل من نبع فياض يروى منه روحه الظامئة، والتي تكاد تذوب وجدا به، وهياما بكل ذرة في ترابه ونسمة في فضائه. وهو في فرحة غامرة لتوحده بهذا الوطن الذي لا يضاهيه في سحره أجمل الأوطان، فهو أرض المعجزات، وأسطورة بما حفل به تاريخه من بطولات تمثل أسمى القيم الإنسانية. [2]

برغم ما قد يبدو من مبالغة في تعبيره لا تخلو أبياته من المسحة الإنسانية، لأن حب الوطن من الإيمان في الموروث العربي، فليس من الإنصاف أن نتهم الشاعر بالشطط [3] لأنه صادق في إحساسه. [4]

فالمقطع أغنية حب للوطن أكثر منه شعرا في الفخر، ولذلك اتسمت الأبيات

[1]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 56-57-58.
[2]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص, 58.
[3]- المبالغة: -
[4]- نفس المرجع: ص، 59.

بالرقة، والصياغة بالانسياب، فلا ضجيج يشوبها، ولا اعتساف في معانيها أو تعقيد في تراكيبها، مثلها في ذلك مثل الشعر الغنائي الوجداني، والصنعة فيها خلو من البهرج المصطنع، ولا يعيبها من حيث الصياغة إلا تكرار صيغة النداء"يا" المسبوقة بحرف العطف تكرارا قد يُغتفر في السرد النثري أو الخطابة، ولكنه غير مقبول في الشعر.بيد أن حماسة الشاعر المتأججة هي التي أدت إلى هذا الإطناب و الإسهاب، ومن ثم إلى التكرار، في حين أن التكثيف أليق بالشعر، لأنه أشد وقعا، وهو يترك للقارئ مساحة للتخيل يملؤها بنفسه، وكأنه يشترك مع الشاعر في إبداعه.[1]

ينتظم المقطع الثاني على نفس المنوال، فهو صورة بانورامية للجمال الذي تشعه الجزائر، إذ يصفها الشاعر بأنها بدعة فاطر السموات و الأرض، وبابل، المدينة القديمة التي ينسب السحر إليها، وهي ومضة الحب، وإشراقة الوحي، وثورة الشعب، ومعقد وحدته. ويبدع مفدي في المقطع الثالث إذ يرتفع بعاطفته الوطنية حتى يساويها بعقيدته، فيناجي الجزائر مناجاة العاشق لحبيبته، والعابد لربه:[2]

جزائرُ يا لَحكايةِ حُبِّي ويا من حَمَلْتِ السَّلامَ لقلبي
ويا من سكبتِ الجَمالَ بروحي ويا من أَشَعْتِ الضياءَ بدَرْبي
فلولا جمالُك ما صحَّ دِيني وما إنْ عرفتُ الطريقَ لرَّبي
ولولا العقيدةُ تغمرُ قلبي لما كنت أومنُ إلا بشعبي[3]

ويقول في البيت الأخير مفاخرا بإلياذته: إنه قد سما بها إلى أفق المتنبي شاعر العربية الأكبر، فاعترف له بالعبقرية:

تَنَبَّأْتُ فيها بإلياذتي فآمن بي وبها "المُتَنَبِّي"

[1]- حسن فتح الباب: مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائرية, ص, 59.
[2]- نفس المرجع: ص، 60.
[3]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 21.

ويظل ضمير المخاطب "أنت" المقصود به الجزائر مسيطرا على النسيج اللغوي، للدلالة على شعور مفدى بالنشوة كلما خاطب محبوبته، وهي الجزائر.[1]

جزائرُ أنتِ عروسُ الدُّنَا ومنكِ استمدَّ الصباحُ السَّنَا
وأنتِ الحنانُ وأنت السَّماحُ وأنت الطِّماحُ وأنتِ الهنا
وأنتِ السموُّ وأنتِ الضميرُ الصريحُ الذي لم يَخُنْ عهدَنا[2]

وتتألق شاعرية مفدى في مطالع المقطوعة التالية باستخدام الأسلوب الاستفهامي الذي يشد انتباه المتلقي ويثير فكره.

أفي رؤية اللهِ فِكرُكَ حائِرْ وتُذهَلُ عن وجههِ في الجزَائرْ؟
سَلِ البحرَ والزَّوْرَقَ المُسْتَهامَ كأنَّ مجاذيفَه قلبُ شاعرْ
سَل الوردَ يَحْمِلُ أنفاسَها لحيدرَ مِثْلِ الحُظُوظِ البواكر
وأبيارُ تزهُو بِقدِّيسِها رفائيلَ يُخْفِي انسلالَ الجآذر
تُبارِكُه أمُّ إفريقيا على صلواتِ العذَارَى السَّواحِرْ
وفي القصبةِ امْتَدَّ ليلُ السَّهارَى ونهرُ المجرَّةِ نشوانُ ساهِرْ
وفي ساحةِ الشهداءِ تعالَى مآذنُ تجلو عُيونَ البَصائر
وفي كلِّ حيٍّ غوالي المُنَى وفي كل بيتٍ نشيدُ الجزائر[3]

تتواشج الصلة بين الإسلام والمسيحية في الأبيات السابقة، إذ يستعيد الشاعر من أعماق التاريخ ذكرى القديس روفائيل الذي عاش في الجزائر بعد أن جاء الدين المسيحي في عصر الرومان، فشيد الرهبان الأديرة. ويشير الشاعر بعبارة صلوات العذارى إلى الراهبات، ثم يذكر مآذن المساجد للدلالة على الوحدة الوطنية والإنسانية

[1]- حسن فتح الباب: المرجع السابق، ص, 60.
[2]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص, 22.
[3]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 62.

وسماحة الإسلام.[1]

ويعود الشاعر إلى وصف الطبيعة الجزائرية مصورا سلاسل جبالها، وأهمها جبال الأطلس الممتدة من المغرب الأقصى حتى الجزائر، وجبال جرجرة،والأوراس التي أطلق اسمها على ثورة الجزائر، فسميت ثورة الأوراس، إذ كانت أهم معاقل المجاهدين، فمن قممها وسفوحها دوت رصاصاتهم وصيحاتهم التي زلزلت قلوب الغزاة، ومنها كانت تغير جحافلهم الفدائية على ثكنات الجيش الاستعماري ومعسكراته المنتشرة حول المدن والقرى فتدكها دكا، وهم يستهينون بالموت في سبيل حياة وطنهم وفداءً لشعبهم:[2]

سَلِ الأطْلسَ الفَرْدَ عن جَرْجَرا تَعالَى يَشُدُّ السَّما بالثَّرَى

تَلَوَّنَ وجهُ السَّماءِ بهِ فأصبح أزرقُها أَخْضَرَا

وتجثُو الثلوج على قدميهِ خُشوعًا فتسخرُ منها الذُّرى

هو الأطلسُ الأزليُّ الذي قضَى العُمْرَ يصنعُ أُسْدَ الشَّرَى[3]

ويرى مفدي أن الحب والثورة صنوان، لأنهما يصدران من نبع واحد، والقلب المضطرم العاطفة، ومن لا يعرف الحب لا يقوى على الحرب.[4]

ويتغنى الشاعر في سائر مقاطع الملحمة بجبال المدن الجزائرية ودورها في الكفاح الوطني عبر مختلف العصور ومؤسساتها الحضارية، مخصصا لكل مدينة مقطعا من ملحمته.[5]

وتشع أبيات مفدي زكريا بحرارة الوجد، في المقاطع التي يشدو فيها بحبه الغامر

---

[1]- نفس المرجع: ص، 63.
[2]- نفس المرجع: ص، 63.
[3]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 24.
[4]حسن فتح الباب: المرجع السابق، ص، 64.
[5]- نفس المرجع: ص، 65.

لوطنه، ومن أشدها وقعًا وأبدعها تصويرًا المقطع الآتي:[1]

فيا أيُّها الناسُ هَذِي بلادي ومَعْبدُ حُبِّي وحُلْمُ فُؤَادِي

وإيمانُ قلبي وخالِصُ دِيني ومبناهُ في ملَّتي واعْتِقَادِي

بلادي أُحِبُّكِ فَوقَ الظُّنونِ وأَشْدُو بِحُبِّكِ في كُلِّ نادي

عشقتُ لأجلك كلَّ جميل وهِمْتُ لأجلكِ في كلِّ وادي[2]

ويختم الشاعر قصيدته الملحمية بمثل ما بدأها، ورده في ثناياها، وهو الهتاف باسم الجزائر ومناجاتها، والدعاء لها بتحقيق آمالها في الحرية والسلام والرخاء، وكأنه عابد يرتل الصلوات في المحراب، أو عاشق يهيم حبا بما اختارها فؤاد.

ولكن مفدي زكريا مناضل ثائر أيضا، ومن ثم يجمع المقطع الأخير بين همسات المحبين وصيحات الفدائيين، بين الزهر والجمر، بين الرومانسي والواقع الثوري،[3]وكأنه أحس بقرب الميعاد مع خالقه، سبحانه وتعالى، إذ توفي بعد ذلك بقليل، فهاهو يمجد بلاده للمرة الأخيرة، وهو يودعها الوداع الأخير ... قبل أن يعود إليها جثمانه الهامد، وروحه تحوم عليه، وترفرف خفاقة فوق طائرة جزائرية تقله من تونس بأمر الرئيس الراحل هواري بومدين، ليوارى في تربة بلاده، وفي وادي ميزاب بالذات،[4] قائلا:

بلادي بلادي الأمانَ الأمَان أُغَنِّي عُلاكِ بأيِّ لِسانْ؟

جلالُك تَقْصِرُ عنه اللُّغَى ويُعْجِزني فيكِ سِحْرُ البيان

وهام بكِ النَاسُ حتى الطُّغَاة وما احترموا فيكِ حتَى الزَّمان

[1]- نفس المرجع: ص، 66.
[2]مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 37.
[3]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 66-67.
[4]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 14.

وأَغْرَيتِ مُسْتعمِريكِ فراحُوا يَهِيمُونَ في الشرقِ بالصَّوْلَجان
ولم يَبْرَحُوا الأرضَ لمَّا استقلتْ شعوبٌ ولم تَسْتَكِنْ للهوان
وزُلْزِلَتْ الأرضُ زِلْزَالَها وضجَّ لغاصِبكِ النَّيِّران
وراهنه الشعبُ يوم التنادي ورجَّ به الشعبُ يومَ الرِّهان
فتبيضُّ صفحةُ إفريقيا ويَسْوَدُّ وجْهُ المُغِيرِ الجَبان
وإشراقةُ الرُّوحِ منكِ تناهَتْ تُشِيعُ الجمالَ وتُفْشِي الحَنان
إليكِ صلاتي وأزكى سلامي بلادي بلادي الأمان الأمان

شَغَلْنَا الوَرى ومَلَأْنَا الدُّنا
بشِعْرٍ نَرَدِّدُهُ كالصَّلاة
تَسابِيحهُ مِنْ حَنايا الجَزائر [1]

[1] حسن فتح الباب: المرجع السابق، ص، 67-68.

المبحث الثالث

قصائد في ظلمات السجون

قصائد في ظلمات السجون:

تأخذ موضوعة السجن عند "مفدي زكريا طابع الفضاء المتعدد الدلالة، والذي يلتقي فيه الموقف الإنساني بشتى مشكّلاته، فيأخذ أبعادا تجعله مكانا خاصا "Spécial" يتسم بجماليات متعددة، كثيرة الثراء، تسمو على الواقع، وتتجاوزه لتشكّل منطقة "موجبة" "Positive" على الدوام. فالسجن – عنده – لا يراد الحجر والمنع، بل يرادف التحرر والانطلاق والريادة. فتنتفي دلالته المعجمية الأولى، وتتلاشى وظيفته الاستعمارية، لتحل محلها وظيفة أخرى أكبرخطرا.. إنه يخاطبه قائلا:

يا سِجن ازخَرْ بجُنودِ الكفاحِ فأنتَ يا سِجْنُ طَريقَ الخُلودِ
أنتَ مِحرابُ الضَّحايَـــا يا مَصْنَع المَجْدِ ورَمز الفدا
يا مَعْقَل الأبْطَّالِ و الشُـهدَا يا مَهبَّط الوَحْي لشِعرِ البقا
يا مُنتَدى الأحرَارِ والمُلْتَقى أصبَحتَ يا سجنُ لنَّا مَعبَدا
عليكَ نَتلُو العَهدَ و المَوثِقا أنتَ أنتَ أنتَ يا بربرُوس.

ولهذا السبب كان السجن مصنعا للمجد.[1]

قصيدة الذبيح الصاعد:

هذه القصيدة نظمها سنة 1955 في سجن بربروس أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة، وهو أحمد زبانا. وفيها يرسم صورًا شعريّة تعبّر عمّا يحسّه من جمال مشهد التضحية وجمال المضحّي،[2] يقول:

[1]- حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي، قراءة موضوعاتية جمالية، ص 74.
[2]- محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، السنة الرابعة، العددان 15-16، ص، 368.

قَامَ يختالُ كالمسيحِ وَئِيدًا يَتهادَى نشوانَ يَتْلُو النَّشيدَا [1]

فالشهيد في اتجاهه إلى المقصلة (يختال) وهي مشية فخر واعتزاز وفرح وحبور، و(يتهادى نشوان)، أي يتمايل كالثمل، و(يتلو النشيد)، أي يعزف على أوتار حنجرته أجمل الألحان، والمشهد مفعم بالجمال، جمال شعور الشهيد، وجمال خروجه من ذاتيته وأنانيته (الثمل)، وجمال الصوت (النشيد).[2]

باسمَ الثغرِ كالملائكِ أو كالطِّف لِ يستقبلُ الصباحَ الجديدَا[3]

والصورة تزداد جمالاً حين يكون المتقدم إلى الشهادة (باسم الثغر)، فهو مبتهج ابتهاج براءة وطهر ونقاء (كالملائك أو كالطفل)؛ لأنه ذاهب إلى (صباح) حياة مضيئة مشرقة و(جديدة).[4]

شامخًا أنفهُ جلالًا وتِيهًا رَافِعًا رأسهُ يُناجِي الخُلودَا [5]

جمال الشعور بالعزّة والكرامة (شامخًا أنفه)؛ لشعوره بجلال موقفه، ولإحساسه بالفخر والاعتزاز؛ لأنه خرج من العالم المحدود إلى عالم (الخلود).

وتتوالى صور الجمال في الشهيد، ويتحول إلى (روح) تسمو في (ليلة القدر)، وكأنه السلام الذي تبشّر به (سورة القدر):

وتَسامَى كالرُّوحِ في ليلةِ القَد رِ سلامًا يشعُ في الكونِ وعيدَا [6]

بعدها يدخل الشاعر في وجدان الشهيد ليتماهى فيه، ويستشعر صموده وبطولته ورحمته حتى على جلاده، وهي صورة جمالية رائعة أن يدعو الشهيد جلاده بأن

---

[1]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 09.
[2]- محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، ص، 368.
[3]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 09.
[4]- محمد علي آذرشب: المرجع السابق، ص، 368.
[5]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 09.
[6]- نفس المصدر: ص، 09.

يسفر عن وجهه ولا يتلثم، لأنه يكنّ الحبّ له أيضاً، ولا يحمل حقداً على أحد، إذ يرحّب بالموت الذي يهب الحياة لشعبه ووطنه:[1]

اشنُقُوني فلستُ أَخشَى حبالًا واصلُبوني فلستُ أَخشَى حديدَا

وامْتَثِل سَافِرًا مُحَيَّاكَ جلاَّ دي, ولا تلتثمْ, فلستُ حقُودَا

واقضِ يا موتُ فيَّ ما أنتَ قاضٍ أنا راضٍ إن عاشَ شعْبي سعيدَا

أنا إنْ متُّ فالجزائرُ تحيا حُرَّةً, مستقلةً, لن تبيدَا[2]

وتتقاطر صور الجمال والعظمة في رسم مشهد تقدم أحمد زبانا نحو مذبح الشهادة، ويوصيه أن يبلغ رفاقه في السماوات أنباء ثورة الجزائر والثوار الجزائريين من كهول وشباب استرخصوا الحياة في سبيل العزّة والكرامة والحرية، ويصوّر عدالة قضيته بمنطق إنساني، فطبيعة الإنسانية الحرّة تأبى الذل والتشريد والجبن أمام الظالمين.[3]

زنزانة العذاب رقم 73:

في زنزانة مظلمة زُجّ بها الشاعر سنة 1955نظم هذه القصيدة وحفظها؛ لاستحالة كتابتها، وفيها صور رائعة للنفس الراضية المطمئنة للشاعر، كما تتضمن رسم لوحة فنية فيها مشاعر العاشق: عاشق (سلوى)، وعاشق (الجزائر)، وكأن صور الجمال تمازجت في ذهنه بين الحبيب (المرأة)، والحبيب (الوطن)، والحبيب (الحرية).[4]

[1]- محمد علي آذرشب: المرجع السابق، ص، 369.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 09.
[3]- محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، ص، 369.
[4]- نفس المرجع: ص، 369-370.

هذه القصيدة تذكرنا بما أنشده أبو فراس الحمداني في سجنه بمنفاه، حين راحت مشاعره تطوف حول الحبيبة التي تقول له:

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما الهوى نهي عليك ولا أمر

ومفدي زكريا يصدّر قصيدته بتصوير مشاعره المطمئنة، ورضاه بكل ما ينزل به في سبيل ما يعشقه[1]

سَيانٌ عِندي مفتوحٌ ومُغلق يا سجنُ بابُك أم شدت به الحَلَقُ

أنامُ ملءَ عيوني غِبطةً ورضي على صَياصِيكَ لا همٌّ ولا قلقُ[2]

وفي جوّ هذه النفس الهادئة الوادعة تمتلئ مشاعره بنجوى الحبّ وذكرى الحبيب:

ورُبَّ نجوى كدنيا الحبِّ دافئةٍ قد نامَ عنها رقيبي ليس يَسْتَرِقُ

عادتْ بها الروحُ من سلوى مُعَطَّرةً فالسجنُ مِن ذكرِ سلوى كله عَبق

وتتماهى (سلوى) مع (الجزائر) في الهوى والحبّ:

يَا لائِمِي في هَواهَا إنها قبس من الجزائرْ و الأمثالُ تَنطبقُ

بنتُ الجزائرْ أَهوَى فيكِ طَلْعَتُها فكل ما فيكِ من أوصَافُها خُلُقُ

هذا الحبّ مقدّس، لأنه حبٌّ للجمال، وحبّ الجمال هو من حبّ الله الجميل المطلق:

أحِبُّها مثلَ حبِّ الله أعْبُدُهَا آمنتُ بالله لا كفرٌ ولا نزقُ

أرضُ الجزائرِ في أفريقيا قُدُسٌ رِحَابُهَا مِنْ رِحَابِ الخُلدِ إن صَدقُوا[3]

وقال الله:

تحت عنوان: «وقال الله» أنشد الشاعر قصيدته، وهو في سجن «البرواقية»،

[1]- نفس المرجع: ص، 370.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 20.
[3]- محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، ص، 370-371.

مخلدًا الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية، وألقيت في مهرجان أقيم في تونس بهذه الذكرى في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1957 ، ومطلعها[1]

دَعَا التاريخُ ليلكِ فاستَجَابا نُوفمبَر هل وفيتَ لنَّا النِصابَا؟[2]

وفي هذه القصيدة يرسم بصورة فنية رائعة، ولغة بسيطة واضحة، سنن التاريخ في نصرة الشعوب من منظار قرآني، ومن هنا فقد جاءت مفعمة بالقيم الدينية.

فالشعب إذا تحرّك فإن ليلته المظلمة سوف تتحول إلى ليلة القدر لترسم قَدَره، وتكون بذلك خيرًا من ألف شهر:[3]

وهل سمعِ المجيبُ نداءَ شعبٍ فكانتْ ليلةُ القدرِ الجَوابَا؟

زَكت وثَّبَاتهِ عن ألفِ شهرٍ قضاها الشعبُ يَلتَحقُ السرابَا[4]

وفي تضمين جميل لسورة(المزمل) تتحول هذه الليلة إلى ليلة القدر بناشئة الليل التي هي أشدّ وطًا وأقومُ قيلاً، وليست هذه الناشئة إلاّ لهيب الثورة الذي أضاء دجنّة الليل:

بنَاشِئةٍ هناكَ أشدُ وطًا وأقومُ منطقًا وأحدُ نابَا

مَضتْ كالشهب وانحَدرتْ شَظَايَا تلهَّبُ في دُجنَّتها التهَابَا

ثم يذكر سنّة إلهية في النصر، وهي بلغة حوارية بين الشعب والله سبحانه:

وقال الله: كن يا شَعبُ حربًا على من ظَلَّ لا يَرعى جنابَا

وقال الشعب: كن يا ربّ عونًا على مَنْ باتَ لا يخشى عقابَا

فَكَان وكان من شعبٍ وربٍّ قرار أحدثَ العجبَ العُجابَا ![5]

ويصوّر ما أحدثته ثورة الجزائر من زلزال في فرنسا، وما فجرته من روح

---

[1]- نفس المرجع: ص، 371.
[2]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 30.
[3]- محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، ص، 372.
[4]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 30.
[5]- نفس المصدر: ص، 31.

جهادية واستشهادية، ويطوف على ما في الجزائر من جنات وخيرات، ثم يتناول مسألة قديمة جديدة هي اتهام الثائرين المسلمين بالإرهاب، وأنهم إذا انتصروا فسيقتلون الأجانب وأتباع الأديان الأخرى، فيتصدى لهذه التهمة بذكر القيم الإسلامية في التعامل مع الآخر، والاستشهاد بتعامل المسلمين في التاريخ:[1]

وقالوا: في الجزائرِ سَوْفَ يَلقَى أجَانِبَها- إذا انتَصَرتْ- تبابَا

هُمْ كَذَبُوا وما لهُم دليلٌ وكان حَديثُهم أبدًا كذابَا

ونحنُ العادلونَ إذا حَكمنَا سلوا التاريخَ عنا والكِتابَا

ونحنُ الصادقونَ إذا نَطَقنا ألفِنا الصدق طبعًا لا اكتسابَا[2]

وتعطلت لغة الكلام:

وفي قصيدة تحت عنوان: «وتعطلت لغة الكلام» نظمها في سجن بربروس سنة 1957، ومطلعها:

نَطَقَ الرصاصُ فما يُباحُ كلامُ وجَرى القصاصُ فَما يُتاح مَلامُ

يصف فيها الجانب القبيح البشع للظالمين المعادين للإنسان وللقيم الإنسانية، ويصور أن مقاومة الجزائريين هي مكافحة كل مظاهر القبح تلك، ويشير إلى ما عاناه الشعب الجزائري من ممارسات بشعة للطغاة المحتلين، منها: إضرام النار والقتل والسجن والتنكيل والإعدام:[3]

لا النارُ, لا التقتيلُ, يثني عَزمهُ لا السِجنُ, لا التَنكِيلُ, لا الإعدامُ

ومن الممارسات البشعة التي لم تُثنِ الشعب الجزائري عن نضاله ما كان يمارسه

[1] محمد علي آذرشب: المرجع السابق، ص، 372.
[2] - مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 31.
[3] - محمد علي آذرشب: مجلة نصوص معاصرة، ص، 373.

المحتلون الوحوش من اغتصاب النساء، وخاصة الفتيات القاصرات:

لا القاصراتُ الغافلاتُ كَواعبا ديستْ قَدَاسَتُها وفضَ خِتامُ

وبعد ذلك يتعرض لما انحط إليه المحتلون الفرنسيون، ولما يدعونه من عدل وسلام وتمدن:

يا لَلْفَظاعة من وحوشٍ جوع تَسمُو على أَخلاقِهَا الأنعامُ

وضَعَت فَرنسَا في النَذَالةِ بدعة لم تَرَوهَا الأعصارُ وهي ظلامُ[1]

ومن القصائد التي كتبها بالسجن أيضا قصيدة "حروفها حمراء" سنة 1957, و أخرى بعنوان "اقرأ كتابك" في ذلك أيضا بمناسبة الذكرى الرابعة للثورة.[2]

[1]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص، 42.
[2]- حسن فتح الباب: مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ص، 51.

الفصل الثالث

الوحدة المغاربية في شعر مفدي زكريا

المبحث الأول

الدعوة إلى الوحدة الكبرى

المبحث الثاني

الوحدة المغاربية في ديوان من وحي الأطلس

المبحث الأول

الدعوة إلي الوحدة الكبرى

الوحدة المغاربية في شعر مفدى زكريا:

فكرة وحدة المغرب العربي لم تكن مجرد خاطرة في شعر مفدي زكريا، بقدر ما كانت عقيدة راسخة في شعره، آمن بها حد الصبابة و الهيام، فأضحت من أهم مكونات شعره، كان مفدي زكريا يؤمن بالترابط بين الوحدة والتحرر، أنشد مفدي أول قصيدة له وعمره 17 سنة، تناولت حرب الريف، بعد أن تناهت الحرب إلى مسامعه فأنشد يحث على مناصرة ثورة الريف وأسدى في القصيدة بعض النصائح إلى الثوار، تركزت على نبذ التفرقة كيفما كان شكلها، وألح فيها على أن الثورة ليست انتفاضة جهوية محدودة بل هي دعوة صريحة إلى مواجهة المحتل مغاربيا، فقد آمن الشاعر أن الثورة لو نجحت في الريف فستعم كامل التراب المغاربي.[1]

الدعوة إلى الوحدة الكبرى:

تشكل قضية الوحدة مرتكزا محوريا في فكر وشعر مفدي زكريا، وقد ظل ينادى بها ويتغنى بها بإصرار متواصل مند بواكير إنتاجه الشعري، وظل وفيا لهذا المبدأ الذي اعتنقه ودافع عنه في كل مناسبة، وجسده بنشاطه العلمي من توطئة بلدان المغرب العربي، تونس والجزائر والمغرب حتى آخر حياته.[2]

ويعتقد أن توحيد الصف كان السبب الرئيس لتحقيق استقلال الوطن، ولذلك كان يدعو للتمسك به كل من أراد النجاح، ويتجه للأشقاء في فلسطين أن يأخذوا العبرة من هذا الدرس الثمين:[3]

نُوفَمبرُ جَلَ جَلالكَ فِينَا ألستَ الذي بثَّ فينَا اليقينَا؟

---

[1]-الموقع الالكتروني: منتديات بوابة العرب.
[2]- نفس المرجع.
[3]- نفس المرجع.

سَبحنا على لُججٍ من دِمَانا وللنصرِ رُحنَا نَسُوقُ السفينَا

ولولَا التِحامِ الصُفُوفِ وَقَانَا لكُنَا سَمَاسِرَةً مُجرمينَا

فليتَ فلسطينُ تَقْفُو خُطانَا وتَطوي كَمَا قد طَوينَا السِّنِينَا

وبالقدسِ تَهتمُ لا بالكَراسي تَمِيلُ يسارًا بها ويمينَا [1]

ويشيد بوحدة الأمة العربية التي تجمعها عوامل الدين واللسان والتاريخ, والآمال والآلام. ويؤكد حقيقة بديهية هي أن الفرقة شقاء وذل وهوان:

يقول في قصيدة ألقاها بالجزائر العاصمة سنة 1932:

كَفانَا شقاءً من وبَاءِ شِقَاقِنَا وتَمزيق مَجمُوع وتَشتِيتُ أفرادِ

فهل نحنُ إلا أمةٌ عربيةٌ شقيقةُ أرواحٍ, قسيمةُ أكبادِ

وهل نحنُ إلا أمة أحمديةٌ مقدسةٌ, غَرَا, سليلةُ أمجادِ [2]

ويلح على هذا المطلب في مؤتمر تلمسان سنة 1935, قائلا:

إن الجزائرَ في الغَرامِ وتُونُسَا والمَغربُ الأقصى خُلِقنَ سَواءُ

نحن العروبةَ والشمالُ بلادنَا وبه نعيشُ أعزةً كُرمَاءُ

أرضٌ مُطَهرةٌ تظمُ ضلوعهَا مهجًا هناك زكية ودماءُ

بدمِ الصَحابة قد تعطرَ ظهرُهَا قدمًا وآوى بَطنُهَا الشُهداءُ

وتعانقتْ فيها البنودُ خوافقًا حمراء تحملُ للأنامِ رفاءُ

شعبٌ أغرْ وأمةٌ عَربية ما إن تطيق مذلةً وشقاءُ [3]

ولا يسعفنا المقام لاستقراء كل نصوصه الشعرية في هذه القضية، ونجتزئ ببعض الإشارات إلى هذا الهم الذي سكن قلبه, والأمل الذي طالما راوده، وكان موقنا

[1]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 70.
[2]- الموقع الالكتروني: منتديات بوابة العرب.
[3]- نفس المرجع.

بتحققه يوما، وإن رآه البعض ضربا من الأوهام والخيال.

ووضع في طريقه سدودا من البحار والجبال.[1]

يقول في "البردة الجزائرية" سنة1937:

تُونس والجزائر اليومِ والمغرب شعبٌ لن يستطيعَ انفصالَا

وحدةٌ أحكمَ الإله سُداهَا ِ من يردُ قطعة أرادَ محالَا

نبتت من أبٍ كريمٍ وأمٍ سُمتْ في الحياةِ عمًا وخالَا

نصبوا بينَهَا حدودًا من ال ألواحِ، جهلًا وخدعةً، وضَلالَا

فاجعلوا إن أردتم الكون سُ دَا ِ وضعوا البَحرَ بيننَا والجِبَالَا

نحن روحٌ مزاجهُ الضَاد والد ينُ ِ فلن يستطيعَ قط انحلالَا

كلما رُمتمْ افتراقَا قربنَا وعقدنَا محبةً واتصالَا[2]

ويردد الفكرة ذاتها في غير ما قصيدة ِ منها قوله:

سَلامٌ على المغربِ الأكبرِ على طبعهِ الناصعِ الأطهرِ

أحيي الآلي آزروا حَربَنا إلى النصرِ في ريحِها الصَرصَرِ

وما يخلوا بالدمِ المغربي على دَمِنَا الفَاتِرِ الأحمرِ

أليسَ امتزاجُ دمَانا الغَو الي شهيدًا على وحدةِ العنصرِ؟

لتقف السياسة خَطوَ الشعو بِ لوحدةِ مغربنا الأكبرِ ![3]

ويصل المغرب بالمشرق في هذه الدعوة الملحة التي أرسلها في الذكرى الثانية للثورة:

رَسولُ الشرقِ قل للشرق إنا على عهدِ العُروبَّة سوفَ نبقى

[1]- الموقع الالكتروني: منتديات بوابة العرب.
[2] نفس المرجع.
[3]مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 86.

وأنَ الوِحدَة الكُبرى إذا مَا تَحَررتْ الجَزائِر سَوفَ تَبْقَى

وبعد استقلال الجزائر يظل وفيا لندائه و غنائه بهذا الحلم الجميل, إذ يقول:

ويا عروبة من أمٍ لنا وأبٍ هنا العروبة دوحاتٌ وأغصانْ

ونحن للوحدةِ الكبرى دَعَامتُها إن كان في العربِ تفكيرٌ وميزانْ

مُدُوا يدًا نبنِ دُنيانَا مُوحَدة فما استقامَ بدنيا الخلفُ بنيانْ[1]

ويستشهد بجبال الأطلس التي تمتد عبر بلدان المغرب الثلاثة، ويتخذها دليلا على على وحدة هذه البلاد أرضا وأمة، وتاريخا ومستقبلا:

سَلِ الأطلسَ الفردُ عن جَرجَرا تعالى يشد السَما بالثَرى

هو الأطلسُ الأزليُّ الذي قضى العمر يصنع أُسُد الشرى

فيا من تردد في وحدةٍ بمغربنا وادعى وامترى

أما وَحدَ الأطلسَ المغرب ي مَعاقِلنَا بوثيق العرى؟

أما طوقتنا سلاسلهُ فطوقنا تاريخنَا الأعصرَا[2]

وفي إلياذة الجزائر خصص مقطعا لتأكيد هذه الوحدة الغالية, يقول فيه:

هو المغرب الأكبرُ المستم د رسالاته من رسولِ الهدى

ووحدةُ مغربنا اليومَ خُطو إلى وحدةِ المسلمين غَدا

بتوحيدِ بعض نوحدُ كلًا وهل يُنكرُ الخَبرُ المبتدا؟

فربَّما كان مغربنَا مثالًا قويمًا به يقتدى[3]

وقد جسد هذه الدعوة في نص دبجه بيده وتلاه على المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا بتونس سنة 1934, سماه "ميثاق التوحيد"وجعله إيديولوجية وعقيدة, محددة

[1]- الموقع الالكتروني: منتديات بوابة العرب.
[2]- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر، ص، 24.
[3]- نفس المصدر: ص، 92.

في عشر بنود. مما جاء فيها: "وطننا شمال إفريقيا جزء لا يتجزأ من جسم الشرق العربي, نفرح لفرحه ونتألم لألمه, ونتحرك لتحركه, ونسكن لسكونه, تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والإسلام."[1]

[1]- الموقع الالكتروني: منتديات بوابة العرب.

المبحث الثاني

الوحدة المغاربية في ديوان من وحي الأطلس

الوحدة المغاربية في ديوان "من وحي الأطلس":

قد يبدو لأول وهلة أن الظرف غير مناسب لتقديم ديوان شاعر ينتسب إلى الجزائر. إلا أن شفيعي في تقديمه أن المغاربة ظلوا حريصين على صلتهم بالشعب الجزائري الشقيق، وبقيت هذه الصلة عندهم تمتاز بكرم الشيم ونبل المشاعر.

وشفيعي كذلك أن صاحب الديوان - وهو الذي أشاد بوحدة أقطار المغرب العربي منوها بما أبلته هذه الأقطار من بلاء حسن في سبيل تحريرها وبما أصلته من مفاخر وأمجاد - وشفيعي بعد هذا أن الشاعر صب ببلادنا معجب شديد الإعجاب بما تحققه في مضمار التقدم والرقي. وقد أضفى على تلك الصبابة وهذا الإعجاب حللا شعرية رائعة تستحق أن يقف حيالها القارئ المغربي وقفة التملي والاستمتاع.[1]

على أن هذا الظرف بالذات ربما كان أنسب الظروف لتقديم هذا الديوان الطافح بألوان من عواطف الإخلاص والوفاء، وأصناف من مشاعر التقدير والإكبار لوطننا الذي تتربص به أسوأ الدوائر فئة لا تقيم وزنا لمكارم الأخلاق.[2]

ومن المنطلق "الجزائري" والمنظور "الثوري" لم يكن يرى مفدى قضية بلاده – نضالا ومصيرا بل وجودا واستمرارا - إلا مرتبطة بالمغرب العربي الكبير، وفي أحضان شقيقتيها المغرب وتونس، فغدا يتغنى بوحدة هذه الأقطار، رافعا لواءها منشدا مشيدا:[3]

وتَغَنَّيتُ مُنذُ فَجرِ شَبَابِي ... بالتحامِ القوى ودَعمِ الجهودِ

لم أزَلْ صَادِحًا على كُلِ غصنٍ ... مِن ربى المَغربِ الكَبير العَتيدِ[4]

أنا في المَغربِ الكَبيرِ نشِيد ... يَتَرامَى صَدَاهُ للأحقَابِ

ونداءٌ لوِحدَةِ الصَفِ يَسمو ... للنِهَايَاتِ دُونَ أي حسابٍ[5]

أما تونس، وله فيها ذكريات ترجع في الأصل إلى أيام الدراسة، فأبدع في ربوعها الخضراء روائع تمجد بطولاتها وأعيادها الوطنية ومواقفها القومية ونضال رجالها

[1]- عباس الجراري: كلمات تقديم، ص، 21.
[2]- نفس المرجع: ص، 21.
[3]- نفس المرجع: ص، 25.
[4]- مفدي زكريا: من وحي الأطلس، ص، 41.
[5]- نفس المصدر: ص، 51.

ورئيسها الحبيب، فكان ديوانه "تحت ظلال الزيتون".[1]

وأما المغرب فقد لجأ إليه الشاعر في قمة إحساسه بالمقاومة ومعاناته لعنفها، فأتيح له في رحابه أن يسترد أنفاسه اللاهثة ليستمر في موقفه الثوري ينميه على أرضه الموحية دائما بالكفاح والجهاد، وأن يستقي منه- وهو يبنى استقلاله - نبضا جديدا لثورة بلاده، ويستشف آفاق مستقبلها. فقد وجد في دأب المغرب على البناء ما يشبع عنده روح الثورة والنضال، كما وجد في موقفه من حرب تحرير بلاده الدافع والحافز والسند الحق ؛ بل وجد هذا الموقف منعكسا على الأدب المغربي - شعره ونثره - بقوة وتدفق وتلقائية وفي روح تضامني وخط وحدوي لا حدود لأبعاده. كذلك نظر الشاعر إلى المغرب من خلال ما يتمتع به من عراقة حضارية وأصالة ثقافية، وما له من إمكانات طبيعية ومقدرات بشرية، وما له من قيم رفيعة وشيم نبيلة، ومن خلال الرسالة التاريخية التي تحملها على مر الحقب والأزمان، فاعتبره مناط أمل الوحدة التي طالما حلم بها، فزاد به تعلقه وأحبه، ولم يلبث أن أبدع في إطار ذلك كله، فكان هذا الديوان "من وحي الأطلس".[2]

ومفدي في ديوانه المغربي - وللحوافز المشار إليها - ينطلق من تجربة حقيقية صادقة غير مفتعلة ولا مصطنعة. ومن ثم لا نعجب إذا وجدنا معظم القصائد والأناشيد التي جمعها فيه تدور في النطاق الوطني ومناسباته المختلفة، وموجهة في الغالب إلى الملك المغفور له محمد الخامس، وإلى جلالة الحسن الثاني نصره الله بصفة خاصة.[3]

ومثل هذا الشعر داخل لا شك في إطار فن المدح، وقد أدرك الشاعر خلفيات هذه الظاهرة وأبعادها، وأحس بنظرات شازرة توجه إليه فبادر إلى الرد للتبرير والدفاع:[4]

وقالو مدحتَ المَالكينَ أجَبتُهم هل المَدحُ في غَيرِ الأماجيدِ مِنْ شأَني؟

---

[1]- عباس الجراري: كلمات تقديم، ص، 26.
[2]- نفس المرجع: ص، 26.
[3]- نفس المرجع: ص، 27.
[4]- نفس المرجع: ص، 27.

إذا ما استقامَ المالكُون مَدحتهم وصُغتُ مدِيحي من قواعَد إيماني
ولـولا كـفِاحُ ما مدحت محمـدًا ولا جئتُ بالآياتِ في الحسنِ الثلِيلِ[1]
ولم أمْـدحكَ عـن ملـق وزلـفـى فمـدحُ الأكـرميـنَ لـدى نـُبل
وقالوا كـم مدحتَ رِجالَ حكـمٍ وقـولُ العـاذليـنَ لـدى يَحـلُو
نعم صَدَقُوا ولم تكـنْ السَـجَـايَـا بِغَـيرِ رِجَـالـها قِيمًـا تجـل
ومـن تـجرُ البُطـولـةَ في دمـــاهِ إذا مـَا مجـدُ الأبطـالِ يَـعـل
ومن ألف الكفـاح يـزد كفاحـاً بـمـدحِ رُفـاقـهِ أيَـانَ حـلـوا[2]
وعَـودنِي نِضَالـي فـي بـلادي على مَدحِ البطولةِ في الرجالِ[3]
مـَدحُ البطولـةِ رِفـعـةٌ وكـَرامـة لولا البطولةُ ما انتزعتُ خلودَا[4]

في قصائده المزج بين الملك والشعب، أو هو ينظر إلى هذا من خلال ذاك، جاعلا حافزه إلى القول ما بينهما من تلاحم وانصهار:

فإن أمدَحُـك أمدح فيك شعبـًا رأيتكَ ذُبـتَ فيه وفيـك ذابا[5]
أنا صَدَّقتُ يَوْمَ صَـدَقتُ بالشعـ ـب وقَدستُ وَحيَهُ في كتابكَ
أنا أيقنتُ يومَ أيقنتُ أن الحُـ ـكمَ للشَعْبِ وَحدَهُ فسمَا بكَ[6]

وإذا كان القارئ يستطيع بنظرة سريعة في الديوان أن ينتهي إلى أن الشاعر لم يترك مناسبة دون أن يعرض للمشاريع والمنجزات والقضايا المختلفة في تتبع وتجاوب وإعجاب، مما يجعلني في غنى عن التمثيل لذلك، فإني لا أملك إلا أن أسجل حضوره المستمر في الساحة الوطنية، من خلال مشكل الصحراء وما أفضى إليه بعد ظهور الحق من حل إبداعي أصيل ومعجز متمثل في المسيرة الخضراء:[7]

[1]- مفدي زكريا: من وحي الأطلس، ص، 28.
[2]- مفدي زكريا: من وحي الأطلس، ص، 77-78.
[3]- نفس المصدر: ص، 88.
[4]- نفس المصدر: ص، 105.
[5]- نفس المصدر: ص، 46.
[6]- نفس المصدر: ص، 25.
[7]- عباس الجراري: كلمات تقديم، ص، 30.

صَحْرَاؤُنَا دَنْسَ الغُربـَانُ حُرمـَتَّها وخَانَهَا من إلى جَلادِهَا رَكَنُوا
قالوا بـراح وفـي دعـواهم كذبـوا لا بدع فالمين من أخَلاقِهم سُنَنُ
سلوا الوثَـائِقَ فالـتَـارِيـخُ يَحْفَظُهَا وسَائِلُوا الكَونَ عنهَا يَشهدُ الزمنُ
واستَفَتْ (لاهاي) واستَّنْطَقْ نَزَاهَتَهَا تُنبِئُكَ من نَبَتُوا فيهَا وَمَنْ سَكَنُوا
دمُ الـمغاربـةِ الأبـطـالِ ضمـخـها وما استكانوا لظلامِ ومَا وُهِنُوا
قالوا اقتراعٌ فقُلنَا بـل نُقَـارِعـكُم فتُهـزَمُونَ ويبقى اللَّحدُ والكَفَنُ[1]
فـقـادَ مَـسِـيرَة خَـضْـرَاء تـعـلـو بـها الرَايَـاتُ والذِّكـرُ المَجِـيدُ
بهـا الأكبـادُ تـنصـبُ انـصـبابـا فيدهشُ من شجاعَتَهَا الوجـودُ
فـلا تـعجَـب لـمعجـزةٍ بـشـعـبٍ تَسيرُ الـمُعـجِزاتُ كما يـريـدُ[2]

وكان قبل ذلك وفي أكثر من مناسبة قد طرح وحدة المغرب العربي:

يا منْ رَعى الوحدةَ الكُبرى وآزرهَا فاخضَرَ مِنْ عُودِهَا دوحٌ وأغصَانٌ
فليصنـعْ المـغـربُ الجَبَارُ وحدتَـهُ ما دامَ يَرعى ذَمَامٌ الجارِ جيرانٌ[3]
والوحدةُ الكبرى رَفعتُ لواءَهَـا ورسمتُ منهاجًا لها وأصُولَا[4]

كما سجل موقف المغرب الرائع في حرب رمضان:

يقـودُ الـثَّائـر الـحَسنُ الـمُفَدَى جحافـلهاَ فـيرتَـعشُ الوجودُ
إلـى سينـاءِ تَنـصُب الـسرايـا إلى الجولانِ تَندفـعُ الأسـودُ[5]

وفي هذا الإطار القومي الوحدوي، يهفو الشاعر في نبل ووفاء إلى أن يعرب عن العرفان بالجميل ويذكر بحقائق التاريخ الحي النابض، فلا يجد أروع من فرصة الترحيب بجلالة الملك في الجزائر:

يا هـابطًا أرضَ الـجَزائِر مرحبًا أرضُ الجزائرِ مَهبطُ الشُجعانِ
فانزلْ عزيـزًا في بـلادكِ مكـرمًا لك في الجزائرِ حُرمَة وتَهَانِي

[1]- مفدي زكريا: من وحي الأطلس، ص، 115.
[2]- نفس المصدر: ص، 137.
[3]- نفس المصدر: ص، 67.
[4]- نفس المصدر: ص، 38.
[5]- نفس المصدر: ص، 136.

فاقبلَ هُنَـافَاتُ الوُفُـودِ تَحيـةً وكَرامَـةً لشبـابِـكَ الرَّيـانِ
إنَّ الجزائِرَ فـي الوفــاءِ نَبـيلَـة لم تَنسَ نَاصِرُهَا على الطُغيانِ[1]

ومفدى زكريا في ثنايا هذا وغيره مفتون بالمغرب محب لشعبه، لا يدع أية مناسبة دون أن يعبر عن هذا الحب والافتتان، ودون أن يتغنى بجمال طبيعته وروعة مدنه ومروءة أهله، لينتهي من ذلك إلى انتساب وإيمان واقتناع بتفرد هذا البلد في الوجود:[2]

وَطَنِي مَغْرِبِي وأَهْلِـي بَنـوهُ إنَّ مَا بِي مِنْ حُبهِ مَثْلَ ما بِكَ
بلادٌ عَرفتُ الله فِي قَسَمَاتِهَا وآمنتُ أنَّ الله لَيـسَ لهُ ثَانـي[3]

أكثر من هذا أن الشاعر حرص على أن يضم ديوانه باقة من شعره الوجداني الصرف، وملاحظة المزج بين المشاعر الذاتية والجماعية عند زكريا تفضي بي إلى تسجيل ظاهرة تعدد الأغراض في النص الواحد، ولكن دون إحداث خلل في وحدته العضوية. وهي وحدة ناتجة عن وحدة الإحساس وتكامل التجربة، حيث تبدو الأغراض داخل هذه الوحدة متناسقة ومتساوقة، ويبقى بناء القصيدة متراصا ومتماسكا في أجزاء متكاملة، بدءا من الحرف والكلمة إلى الشطر والبيت، وفي سياق وشعور موحدين ؛ وهذا يكشف عن قدرة الشاعر على التحكم في انفعالاته مهما كان ضغطها وإثارتها للقول.[4]

وقد اختار مفدي لهيكل بناء قصيدته إطار العمود التقليدي، في محاولة أحيانا للتنويع والتلوين داخل هذا الإطار، وخاصة في الأناشيد أو ما هو شبيه بها مما يعتمد القوافي المتغيرة والمقاطع المفصولة بلازمة في الغالب.[5]

وإذا كان الشكل تقليديا فالمضمون جديد ما في ذلك شك. وهو مضمون يكشف بثوريته القوية الواضحة عن مدى تجاوب الشاعر مع عصره وشعبه وقضاياه، بل إن

[1]- نفس المصدر: ص، 39.
[2]-عباس الجراري: كلمات تقديم، ص،33.
[3]- مفدي زكريا: من وحي الأطلس، ص، 29.
[4]عباس الجراري: كلمات تقديم، ص، 34-35.
[5]نفس المرجع: ص، 35.

هذا المضمون بطغيان روح المعاصرة عليه يكاد يشفع له عدم ابتعاده عن النمط العمودي. ولعله حتى من خلال المنظور الجديد لا ينبغي التحامل على عمودية مفدى، فقد جاءت أنسب إطار لقصائده الوطنية الجماهيرية، لما تقتضي من إنشاد وحماس وأسلوب مباشر يتسم بالخطابية والتقريرية، حيث يلح على التكرار والتأكيد والرد والتنبيه، وكذا على التعجب والنداء والاستفهام والإنكار، ثم على التحريض والأمر والنهي والنفي؛ وهي جميعا صيغ تسعف في التوعية والإيقاظ والإثارة والاستنفار والتفجير والحث على الجهاد والنضال.[1]

وشعر مفدي بهذا الأسلوب جاء متميزا بموسيقى نظم نبرها إيقاع أوزان مناسبة، وتطريب تقسيمات مقطعية داخلية، وتنغيم القافية التي ترد في الغالب متفقة مع ما يقتضي الإنشاد من جرس ينسجم وحالة نفسية الشاعر وجماهيره. [2]

وقد تبين لي من خلال عملية إحصائية لقوافيه، أن أزيد من ثلث الديوان ورد على النون وهو حرف ذولقي يوحي بالتطريب والتنغيم، ثم على الراء وهو حرف يثير نطقه رنينا ووقوعا صوتيا واضحا على السمع، وبعد ذلك على اللام وهو يقترب من الراء وإن شابه النون في ذلاقته. ويصل حرص الشاعر على جمال قافيته و تعبيرها إلى حد لزوم ما لا يلزم، وله منه قصيدة جمع فيها بين العين الحلقية والكاف الانفجارية، وهي التي أولها:[3]

هل درى الفجر الذي قد أطلعك ولد الشعب أم الجيل معك[4]

وعناية مفدي بموسيقى شعره جعلته يعنى بلغته، فجاءت سلسة سهلة ناصعة، مع جزالة وفخامة، تثير بدوي كلماتها المشحونة بالنفس الحماسي ونبر تركيبها الصارخ الصاخب إيقاعا رنانا يلحم بين التجربة والتعبير. ويصل هذا الارتباط بين اللغة والموضوع في بعض الأحيان إلى درجة إيحاء صوت الكلمات وتكرار حرف معين فيها بالمعنى، على حد ما يكشف عنه تتابع حرف السين ومعه الصاد في هذين البيتين

[1]-عباس الجراري: كلمات تقديم، ص، 35.
[2]- نفس المرجع: ص، 36.
[3]- نفس المرجع: ص، 37.
[4]- مفدي زكريا: من وحي الأطلس، ص،30.

من صفير معبر عن تصويت السلاح وتفشي الموت: [1]

وسَارْتْ سَرَايَانًا لجَولَانٍ تَلتَقِي بجولانِ عَزْرَائِيلَ في لَيلَةِ الإسْرَا

وتَسبِقُ إسْرَافِيلَ ينفخُ صوره فتُصعَقُ في سِينَا لرجفتهِ الصَّحْرَا[2]

ومثل هذا التكرار ينصب على كلمات بعينها، كما في لفظ الجولان في المثال السابق، وهو كثير عند الشاعر، وقد يتخذ في بعض الحالات شكل تلوينات بديعية كالجناس:

أليس من الخوارق أن نراه يُلَاقِي النُبلَ لا يَلقَاهُ نُبلٌ

ومنْ وَهَبَ العِنَايَة لا يُبَالي أيَخْشَى النُبلَ مَنْ يَغْشَاهُ نُبلٌ[3]

بَنَادِقُهُ لا بَيَادِقِهِ تُجِيدَ مع الضَالِعِينَ القِمَارَا[4]

وفي الرِّبَاطِ ارتبطنَا طوعَ مُشورِها فإن أسْوَارَهُ للمجدِ أركانٌ

أَرسَى المَحَاسِنِ في أعمَاقِهَا حُسنٌ وصَانَ حُرمَتَهَا في البُرجِ حِسَانٌ[5]

وكالجناس في التحسين البديعي تشكيل الطباق والمقابلة، وللشاعر فيه نموذج زيدوني رائع:

ما للجِرَاحَاتِ نُخْفِيهَا فتُبدينَا وللحشاشاتِ نَاسُوهَا فتدمينا

وللفوجع ننساها فتفجؤنا وللسِهَامِ نُفادِيهَا فتصمينا

ولليالي نصافيها فتنغصنا وللزمان نداريه فيردينا

وللسماوات ندعوها فتكسفنا وللحظوظ ندانيها فتقصين ا[6]

ولعله واضح أن هذه التلوينات المحدودة جاءت عفوية تلقائية لا يقصد بها الشاعر إلى التلاعب بالألفاظ وتكلف التزويق بالمحسنات، وهي بذلك تؤكد أن الصياغة عنده لا تطغى على العواطف، في وقت تساعد على التعبير عن التجربة

[1]-عباس الجراري: المرجع السابق، ص، 37-38.
[2]- مفدى زكريا: من وحي الأطلس، ص، 101.
[3]- نفس المصدر: ص، 77.
[4]- نفس المصدر: ص، 90.
[5]- نفس المصدر: ص،68.
[6]- نفس المصدر: ص، 11.

وعلى إثارة الإحساس بالغيرة والنضال والشعور بالوجود والكرامة، وعلى التأثير بذلك في الجماهير وحثها على التجاوب. كما أن صخب الإيقاع في هذه الصياغة الناضجة تداخل مع ضخامة الموضوع ليؤدي في النهاية وظيفته التعبيرية، انطلاقا من معايشة واقع نابض بالحركة والحياة، ومعاناة صادقة تتسم بالالتحام الحي مع مطامح الأمة وظروف نهوضها المتوثب، بما يحفز على تفجير طاقات الخلق في تشكيل معبر جميل.[1]

وفي هذه العلاقة المنسجمة بين الشكل والمضمون، تكمن روعة شعر مفدي – وأي شعر - أو إحدى نواحي روعته. وهي عندي بتكاملها الجدلي المقياس الحقيقي لصدق التعبير والجودة الفنية.[2]

وإذا ما لوحظ على الشاعر من هذه الزاوية عدم التعمق في مضامينه، حيث جاءت بسيطة تتفق وسهولة اللغة التي سبكتها، فعذره أن شعره بحكم مخاطبته للجماهير، وحتى يكون قريبا إلى النفوس والأفهام والعواطف الشعبية، اتسم في أغراضه كما اتسم في أساليبه بطبيعة تجعله هادفا إلى التوعية والإثارة وليس إلى التفكر والتأمل.وعذره كذلك أن اتساع النطاق في تجربته لم يتح لمعاناته إمكان التركيز والتجميع. وعذره بعد هذا أن المتلقين لشعره يشاركونه تجربته ومعاناته، ومن ثم فإنهم لا يحسون بأنه يأتيهم بجديد، وحتى إن أتى به فإنهم لا يدركونه أو لا يكادون.[3]

ولا شك أن ديوان شاعر بهذه المنزلة يحتاج إلى دراسة نقدية واسعة عميقة ليس مجالها في هذا التقديم، ولكن حسبي أنني ألقيت قليلا من الضوء عليه. ولعلي بذلك أن أكون أعربت عن بعض مظاهر العرفان لشاعر الجزائر الذي حافظ على العهد حين تنكر غيره، فظل وفيا للمبادئ النضالية الثورية والقيم الوطنية القومية والروابط

[1]-عباس الجراري: كلمات تقديم، ص، 39-40.
[2]- نفس المرجع: ص، 40.
[3]- نفس المرجع: ص،41.

الأخوية الإنسانية، وما إخال إخراج ديوانه في هذه الحلة القشيبة بأمر مولوي كريم إلا مظهر اعتراف لهذا الشاعر الوفي.[1]

[1]- نفس المرجع: ص، 42.

الخاتمة

الخاتمة

ويبقى مفدي مع ذلك صاحب شاعرية مكتملة ناضجة، ورؤيا واضحة محددة، وقدرة عفوية على التعبير في صياغة سليمة جذابة وتجاوب تلقائي صادق. كما يبقى شعره شاهدا على نهضة العصر ووثبة الشعب، وصورة حية لمرحلة صاخبة من حياته، وصفحة فنية من التاريخ تغني مضامين الوطنية والقومية وتوسع آفاقها وأبعادها، وتعبيرا مشرقا في مضمار الكفاح عما تحسه الجماهير وتتطلع إليه في أقطار المغرب الكبير وجميع بلاد العروبة. ويبقى تبعا لذلك شعرا هادفا أدى دوره ومازال، وأظن أنه سيظل حيا في النفوس والألسنة، طالما أن بواعثه موجودة تحرك حياتنا نحو الأحسن والأفضل، وهي بواعث خالدة في شعبنا التواق أبدا إلى الحرية والكرامة والنضال من أجل المحافظة على مقومات الحياة الشريفة النبيلة.

وأعتقد بذلك أن مفدي زكريا يتعدى الإطار المحدود لشاعر الجزائر وثورتها إلى إطار شاعر المغرب العربي الكبير، وأكاد أعتقد أنه حقيق بمكان طليعي في مسيرة الشعر العربي المعاصر عامة. وهو إذا كان جديرا بهذا المكان فليس فقط باعتباره شاعر الأقطار المغربية، بل باعتبار شعره يمتاز بالسلاسة والنصاعة والإيقاع المنغم الجميل، ثم باعتبار هذا الشعر يمثل بحق، وتحفزا من عاطفة فياضة، وانطلاقا من تجربة ومعاناة صادقتين روح العروبة المفعم بالتآزر والتضامن ومبادئ الحب والإخاء وشرف الكلمة والرأي، والمفعم كذلك بوشائج الوحدة ودعائم الكفاح الوطني والقومي والرؤيا الواضحة لآفاق المصير المشترك. وهي لعمري مقومات نفتقدها – أو بعضها - في كثير من الشعر العربي المعاصر، على غنى أشكاله وغزارة مضامينه.

ويمكن اختزال مضمون ومعالم شعر زكريا، أنه كان شعر قضية, إذ لم يكن في كتابته الشعرية لاهيا أو متسليا، ولم ينظم الشعر مضاهاة, ولكن كان شعره نبض مشاعر، وصدى لأمة ذاقت ألوان العذاب وعرفت أقسى أنواع الاستعمار، إذ احتل الأرض وسعى ليسلب العقل و القلب، ويمسخ الفكر واللسان، ويشوه التاريخ، وبذل

في سبيل ذلك كل حيلة واتخذ له ألف وسيلة.

ولكن يقظة الضمير الحر في أبناء الشعب الجزائري حالت دون تحقيق هذه المطامح وانتظم شعر زكريا في هذا المسار منذ بواكير إنتاجه واستمر وفيا لهذا الخط إلى آخر رمق من حياته. ولم تغيره الظروف المتقلبة والمحن المتتالية عن هدفه المرسوم بل ظل يلهج بحب الوطن ويشيد بالأمجاد والقيم، وينزل بشعره حمما على الظالمين، ويدعو إلى وحدة العرب والمسلمين، حتى وافاه أجله ولحنه الخالد: الأصالة والوطنية والحرية والوحدة.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- د.أحمد زكي عبد الحليم: أحمد شوقي شاعر الوطنية, سلسلة "كتاب الهلال" القاهرة,ع/322, 1977.
- بلحيا الطاهر:تأملات في إلياذة الجزائر لمفدي زكريا, المؤسسة الوطنية للكتاب, الجزائر.
- د. حسن فتح الباب:مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية, الدار المصرية اللبنانية, ط1, 1418- 1997
- حواس بري: شعر مفدي زكريا, دراسة وتقويم, ديوان المطبوعات الجامعية, س91.
- د. حبيب مونسي: فلسفة المكان في الشعر العربي, قراءة موضوعاتية جمالية, منشورات اتحاد الكتاب العرب, دمشق-2001.
- د. عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث{تاريخا وأنواعا وقضايا و أعلاما}, ديوان المطبوعات الجامعية, سنة 1995.
- عباس الجراري: كلمات تقديم, جمع وتقديم, حميدة الصائغ الجراري, م ن ج,38 , ج2.
- مفدي زكريا: إلياذة الجزائر, ط م و ف م, وحدة الرقابة 1987.
- مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى, جمعه وحققه,مصطفى بن الحاج بكير حمودة, الجزائر, 2003.
- مفدي زكريا: اللهب المقدس، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- ميخائيل نعيمة: الغربال, مؤسسة نوفل, بيروت, ط12,1981.
- صالح خرفي: الشعر الجزائري, سلسلة الدراسات الكبرى, ش وللنشر وتوزيع- الجزائر.
- يحي الشيخ صالح: شعر الثورة عند مفدى زكريا, دراسة تحليلية, رسالة

قائمة المصادر والمراجع:

ماجستير, جامعة الأغواط/الجزائر, مناقشة, ع/مطبوعة, 1987.

- نسيب نشاوي: مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر, ط1, 1980.
- فوزي عطوي: أحمد شوقي شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ, سلسلة, "أعلام الفكر العربي" دار الفكر العربي, بيروت ط1, 1989.
- مفدي زكريا شاعر المغرب العربي الكبير: من وحي الأطلس، ج1، ط، م، ت، ذ، م، عشرين سنة على استقلال المغرب، مطبعة الأنباء.

الصحف و المجلات:

- نماذج من الشعر الجزائري المعاصر {شعر ما قبل الاستقلال}, سلسلة أدبية تصدرها مجلة آمال, وزارة الثقافة, العدد2.
- جريدة الصباح التونسية: العدد287, تاريخ 1961/11/09.
- جريدة المغرب{الجزائر}, العدد313, 1930/08/20.
- محمد ناصر: شاعر الثورة في مراحل حياته, مجلة الثقافة, ع93,ط1.
- أ.د. محمد علي أذرشب: مجلة نصوص معاصرة, العددان 15-16, صيف وخريف, 2008- 1429.

الموقع الإلكتروني:

http://ar.wikipedia.org/wiki. مفدى زكريا

http://vb.arabgate.com/dowthread. منتديات بوابة العرب

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

1-شكر وعرفان.
2-الإهداء.
3-المقدمة..... 01.
4-المدخل..... 04.
5-الخطة..... 05.
6-الفصل الأول..... 15.
- المبحث الأول..... 15.
- المبحث الثاني..... 24.
- المبحث الثالث..... 29.
7-الفصل الثاني..... 37.
- المبحث الأول..... 39.
- المبحث الثاني..... 47.
- المبحث الثالث..... 56.
8-الفصل الثالث..... 63.
- المبحث الأول..... 63.
- المبحث الثاني..... 68.
9-الخاتمة..... 77.
10-قائمة المصادر والمراجع..... 79.
11-فهرس الموضوعات..... 81.